
ذاكرة
عند الصّفر



اسم الكتـــاب: ذاكـرة عند الصّفر

المـــؤلـــــف: عاتكة حامد العمري

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 144 صفحة

عدد المــــلازم: 9 ملازم

مقاس الكتـاب: 14 x 21

عدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقــم الإيـــداع: 21722 / 2019

الترقيم الدولي: 8 - 808 - 278 - 977 - 978 ISBN:

التوزيع والنشر:



القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com



عاتكة حامد العمري

ذاكـــــرةٌ عند الصّفر

روايـــة



مقدّمة

في الفترة التّي تجلّى فيها التّطوّر المادي للبشريّة لم يستطع العقل الحديث تجاوز الواقع وفشل في محاولة دمجه بالأحلام، فظلّت المخيّلة حبيسة في الأدراج الزمنيّة والتاريخيّة للذاكرة، ذات التدخل البشري أدّى إلى تهتّك المخيّلة والذّاكرة البشريّة مجددًا لتفقد بذلك قُدرتها على الإبداع.

«إنّ الماضي تفسير، والمستقبل وهم، العالم لا يتحرك عبر الزمن وكأنّه خط مستقيم يمضي من الماضي إلى المستقبل، بل إنّ الزمن يتحرك من خلالنا وفي داخلنا، في لوالب لا نهاية لها».

(شمس التبريزي)

الوادي ٢٠٢٠

الرّبيع قدْ حلّ وضوء الشّمس يجدل من خيوط ظلام اللّيل ونور الصّباح جدائل يومٍ جديد، يغازل شعاعهُ جدول الماء المنحدر من أعلى التلّة، حيث النسيم يتهادى كقطعةٍ حريريةٍ تتثنّى على جسد غادة حسناء.

أيقظت شروده نسمات الصّباح الربيعيّة وهي تتلاعب بالرذاذ المتطاير عند اصطدامِ الماء ببعض الحجارة المتناثرة، يجلس عند النّهر والخراف تتجول في المكان، تلتهم الأعشاب الربيعيّة الغضّة النّابتة عند الحافة، وما أكثرها! لِتُخزّنها فتجترّها مساءً قبل خلودها للنّوم، حين يجلسُ على ضوء الصِّلاء يجترّ أفكارًا من ماضٍ بعيد.

هذا المنظر، هو ما اعتاد عليه أهلُ وادي السّاكن في تلك البقعة من الأرض، والتّي تبعدُ عن العاصمة قُرابة الساعةِ بالسيّارة، وادي السّاكن، الذي يعتبر امتدادًا لأخاديد ووديان غور الأردن، أخفض بقعة على وجه الأرض على امتداد البحر الميت، حيث أنزل الله عقوبته على قوم لوط فيما يروي المفسرون، فخسف بهم الأرض، فلا يوجدُ على وجه البسيطةِ مكانٌ أخفضُ منْه، وليس أخفضُ من بقعةٍ في الأرض

سوى أخرى تشبهها في غور نفسٍ بشرّية خُسف بها ذاتَ فسحةٍ من أمل، فلا هي تسترجعُ ماضيها ولا تعيش حاضرها.

بدا انعكاسُ وجهه في الماء إثرَ وقفةٍ تأمليةٍ له بجوار النّهر، جزءًا من معاشه اليومي، خمسينيّ أشيب الشّعر، فارع الطّول، حافيَ القدمين، مكتنز البدن، مفتول العضل، متّصل الحاجبين، كثّ اللّحية والشاربين، يرتدي قميصًا أشبه بالمزنوك، وهو لباس شعبي معروف لدى أهل البلاد، يتّكئ على عصًى يسلّطها على أغنامه التّي يمتلكها وتعتبر جلّ ثروته.

يغمس وجهه بالماء معلنًا بذلك انطلاقة نهاره الجديد في ظلّ هذا الوادي، الذي اختاره كمحلٍّ لسكنه منذ ما يقرب من عشرين عامًا، قرّر خلالها أن يكون ابنًا وفيًّا للوادي، بعد عودته من سفر بعيد لا يتذكّره غالبية جيل الشباب في بلدته، فتحوا أعينهم على صورته كجزءٍ من هذا الوادي، حيث يبدو كلّ شيء مألوفًا ومتشابهًا، يعيش على نفس النّسق برتابة وهدوء، عدا أنّ عجاج كان يعرف أنّ اسمه هو الشيء الوحيد الذي لا يشبه هذا الوادي، ولم يكُن يشبهه يومًا، لكنّ أعماقه لا تختلف كثيرًا عن أعماق الوادي، ما بين منحنيات، صعودًا وهبوطًا، تتهادى دماؤه في رحلة ذهابٍ وإيابٍ تشبه ماء هذا النّهر، الذي يقسم الوادي من منتصفه، بَيْد أنّ له اسمًا هو السّاكن، وذلك نسبةً لهدوء المكان، وحين سمّاه أبوه عجاجًا أراده صاخبًا وقويًّا، لكنّه كان الأكثر

هدوءًا بين أقرانه، تذكّر أنّه سمع جدّته يومًا تقول لوالده وهي تطعمه بعضَ سليق القمح، وقد تربّى في كنفها بعد موت أمّه «لن يكون له من اسمه نصيب، إنّه هادئ كهدوء وادي السّاكن، لكنّ معنى اسمه يتبعه كظلّه بل يحيط به كسوارٍ في معصم» حين انتهت الكلمات إليه بدا كأنّه يفعل ما هو أكثر من الأكل والاستماع، فقد التحفت بها ثنيات عقله إثر وقوف حبّات السّليق في حلقه ليغيب عن الوعي من لحظته، فيجدَ الزمن قد توقّف بهِ عنْد تلك النقطة.

في ذات الّلحظة، كانت قسمات والده الرجل ذي العنفوان على جمودها تبدو متحرّكة كرملٍ في صحراء، والرجل يحاول أن يبدو متماسكًا، ولكنّه لم ينجح في أن يخفي لهفته على ولده، مندفعًا نحوه ماسكًا إيّاه بين يديه، محاولًا هزّه ليتحرك الهواء في حلقه، محاولًا منحه فرصةً للنجاة، ها هو يستعيدُ وعيه إثرَ طرقاتٍ متتالية من يد جدّته على ظهره، والّتي تدخلت في الّلحظة المناسبة ففي بعض الألم منفذٌ نحو الحياة من جديد، شعر برذاذٍ باردٍ يتساقط على وجنتيه بعد أنْ قامت نوريّة جارة جدّته اللّصيقة، والّتي لا تبارح مجلسها بِرَش قطرات من الماء البارد على وجنتيه.

يوم جديد ١٩٨٢

تطايرت قطرات الماء البارد مندفعة من الصّنبور لتملأ إبريقَ الوضوء بعد أنِ استيقظ آسية منْ نومها، في صباحٍ كبقية الصّباحات على صوت أذان المسجد القريب يتهادى مع نسمات الفجر الرّائقة، سبعينية وقورة ينادونها بالحاجّة- لقبٌ يصرف لكبار السّن تيمُّنًا بحجّ بيت الله- يبدو على وجهها أثرُ الصلابة والصبر إثْرَ حياةٍ متواصلة من الكدّ والكفاح، لمْ تتذكر يومًا أنّها توقفت عن أحدهما أو مُنحت فرصة لتلتفت عن تلك الأعمال التي يجب أن تنجزها، تناسقُ وجهها البديع يعكسُ مقدار ما تمتعت به من جمالٍ يومًا، ومازال أثره واضحًا بَيْد أنّ الزمن قد ترك علاماته على كلّ تفصيلةٍ من جسدها، لكنّها مازالت تتمتع بقوّة وبواقي رشاقة هي إرث نظام حياة طبيعي ويقين يربِطُها بعالم الغيبِ بشكلٍ خاص.

ترتدي الحاجّة ثوبها العربيّ الأسودَ الخالي من النّقوش والمطرّزات وتعصب رأسها بعصابة حمراء من قماشٍ شِبهِ حريريٍ مقصبٍ- حطّة- فوق قماشٍ عريض أسودٍ شفاف يدعى الشنبر، تحمل مرآتها الدّائرية المتنقلة والّتي تضعها تحت مخدّتها، تفرك وجهها بكفّها، تتحسّس

تضاريسه، تمرّر أصابعها على وشوم ذقنها وما تبقى من تضاريس خدّيها البارزتين، الّتي تحولت الى قيعانٍ متغضّنة وجافّة مرسومة بكحلٍ أسود، فلا تكاد تتذكر ذلك اليوم الذي رسمت فيه تلك الوشوم لدى غجريّة الحيّ، لولا ذلك الشعور اللاذع لوخز الإبرة التي طرزت بها تلك الرسوم، (كان تقليدًا وعرفًا سائدًا) تضحك في سرّها، وقد عرفت حديثًا عندما سمعت خطبة الجمعة الّتي تناهت إلى مسامعها من الجامع قبل أسابيع أنّ هذا الوشم لا يجوز- حوقلت في سرّها- ثمّ توجّهت لتوقظ حفيدها بعد فراغها من أداء فريضتها.

تذكّرت سهرها ليلة البارحة وهي ترقب نوريّة فقد كلّفتها بمهمة، تلك المرأة الشابّة، صاحبة القلب الطيّب، قوّية البنية، حادّة النّظر، والتي يغيب عنها زوجها لأسابيع في عمله في الدرك جنوبًا، فتقوم بأعمال كثيرة تترتب على ذلك الغياب، لتساهم في ميزانية البيت، فهي تحترف مهنة الخياطة لتساعدها في تأمين حاجة عائلتها.

تهتم نوريّة بجارتها الحاجّة فلا تكاد تغادر مجلسها في الصّباح وأحيانًا في سهرة المساء، لقد ظلّت لساعةٍ متأخّرة تعمل على ماكينة الحياكة بعد أنْ هدْهَدت صغارها حتّى ناموا، تواصل بعدها ساهرة لإعداد الحقيبة الخاصّة بعجاج.. حتّى يتمكن من أنْ يلتحق بالمدرسة، حقيبة بلون الحشيش الأخضر النّابت جوارَ مجرًى مائي، خاطتها نوريّة بطلبٍ من الحاجّة آسية من قطعة متخلفة من قماش صنعت منْه أثواب

فرش المضافة (غرفة الضيوف)، يستقبل أبوه فيها ضيوفه بصفته أحدَ وجهاء البلدة، وعجاجٌ ابنه الوحيد من زوجته الأولى ليلى، توفيت بعد بلوغه خمسة أعوام في حمّى شديدة أصابتها، وتربّى في كنف والده ورعاية جدته أمّ أبيه، لمّا بلغ من عمره سبعًا تزوج أبوه بإحدى نساء البلدة، أرملة تدعى فايزة اختارتها له الحاجّة، حرصت على انتقاء عروس بمواصفات تعوّض ابنها عن وحدته وتساعدها في تربية ولده، نشأت فايزة في أسرةٍ من الطبقة المتوسّطة كحال غالبية سكان البلدة، يتشابهون في معاشهم وإن كان هناك بعض الفروق من منزل لآخر تبعًا لسعة الرزق ومصدره، فمن له تجارة إضافة لدخله أو ما يكسبه من عمله في الفلاحة يستطيع أن ينعم بمعيشة مريحة، لم تكمل فايزة تعليمها كبقية النّساء في بلدتها، حيث يشقّ على الأهل أن يبعثوا ببناتهم لمناطق بعيدة لتلقّي التعليم الثّانوي، وغالب من درسن لم يتخطّين التعليم الابتدائي أو المتوسط على أفضل تقدير، لم يكن لها من زواجها الأوّل أيّ أبناء، كانت امرأة يعرف عنها الجمال وكمال الخلق، ممتلئة البدن، وضيئة الملامح، لم تنجب بعد زواجها من أبي عجاج، فبقي الصّبي صاحب حظوةٍ لدى أبيه، فهو بكرُه ووحيده وابن زوجته الأولى، لم تكن الزوجة الجديدة لتؤثّر على أبيه فيقصيه؛ بل كانت امرأة من الفضليات، تتفقّد له مواضع نومه وأكله فهي تعتبره كولدها، كان هادئًا وفطينًا بالرغم من صغر سنّه، ويعرف الكثير من تدبير شئون المنزل والعناية بنفسه

وبجدّته، تلك المرأة المسنّة، امرأة صوّامة قوّامة تصل ليلها بنهارها في طاعة وعبادة.

لم يعرف هل جدّته مكشوفة البصيرة، أم أنّ ما يحصل معها هو محض صدفة! فهي تروي الكثير من الحكايات يتخللها دائمًا بعض من نبوءاتها القادمة من عالم غيبي، لم تزره في واقعها، لكنّها لا تبرحه بخيالاتها!

بدا واضحًا لمن يتعرّف إلى أسرتهم ذلك الفراغ الذي تركته أمّه بعد رحيلها، والذي سرعان ما انرتق بزواج أبيه.. سوى أنّه في جزء خفيّ منه بقي ممزّقًا، وذلك هناك في زاوية بعيدة من ذاكرته الّتي تأبى أن تلتئم.

كانت أحلامه تزداد اتساعًا، فدائمًا يحلم بتلك المساحات الواسعة التي يطير عبرها دون جناحين، حينًا يسيطر على نفسه دون أن يفقد اتزانه، وحينًا آخر يجد نفسه مستفيقًا ولم يعدْ قادرًا على ذلك، كأنّما يتأرجح بين ماضيه، حاضره ومستقبله، حيث لا قيمة للزمان في نفسه.

في صبيحة الحلم يدور في ساحة البيت يحرّك رأسه، يقطب جبينه ويغمض عينيه معبرًا عن خيالاته، يدور ويدور، يأتيه صوت فايزة التي تجلس في ضوء شمس الصّباح ممدّدة ساقيها وهي تقوم بتنقية حبّات العدس من الشوائب استعدادًا لطهي الحساء؛ تصيح بنزق: «توقف يا عجاج قد تسقط فتؤذي نفسك». لكن رغبته في الدوران تصمّ أذنيه فلا يستمع، على مقربةٍ منهما تجلس جدّته تحتسي كوبًا من الشاي تسند ظهرها للحائط، وتهشّ

بيدها على ذبابة تحوم في مرمى بصرها، تفقد صبرها فتقرّعه: «أيّها الشّقي توقف عن الدوران كالذبابة الطائرة! ألا تعرف أنّ خالتك تخاف عليك؟»

فجأةً تنبّه لكلمات جدّته مدفوعًا بفضوله في أن يعرف معنى ذلك الخوف الذي يتحدّث عنه الكبار؛ فهو يختبر شيئًا مشابهًا له، فكثيرًا ما يرى نفسه في منامه أسيرًا ومحبوسًا في مكانٍ لا يستطيع أن يغادره وكأنّ قدماه قد شلّتا، ومن خلف سور من الحجارة المتراصّة يشاهد سنورًا برأس كبير يتابعه وينظر نحوه بعينين تلمعان بشرٍ حادّ، يتملكه خوف يقطع أنفاسه المتلاحقة ورغبة في الفرار، يحاول تخطّي عتبة الساحة الأمامية للمنزل، لكنّه يشعر بفشله وعدم قدرته على صعود العتبة والتي يعبرها طفلٌ صغير في الواقع، ليجد يدًا تمتد له، ثمّ يستفيق بعدها وهو يحسب أن هناك جزءًا مفقودًا لا يتذكره، وإذ بريقه قد جفّ في حلقه وتبعه قلبه بوجيب شديد؛ ليدفن رأسه تحت غطائه محاولًا إبعاد شبح مخاوفه الذي يطارده، ولطالما تكرّر هذا الحلم عليه، بَيْد أنّه لا يستطيع أن يبوح بهذا لأحد، حتّى لجدته! إذ كيف لطفل هو رجلٌ في عيون ذويه أنْ يهزّ تلك الصورة التي رسمت له! إنّه لا يستطيع أن يتحدث لأحدهم.

تساءل كيف يمكن له أن يحيا بذاكرة يتخللها فجوة زمنية فارغة! هي إرث اللحظة التي غاب فيها عن الوعي حين كان صغيرًا، فجوة تتسع في عقله ليجتاحه البياض مجدّدًا، لا يعرف كم سيفقد من ذاكرته خلالها؟ وهل يمكن أن يعيش بجزءٍ منها؟

لم يكنْ قادرًا على نبش الذكريات في وجدانه فذاكرته تعانده، ولا أحد يسانده سوى جدّته التي تبذل ما في وسعها.

تقطع الحاجّة شروده العميق مدفوعة بمشاعر الشفقة على صغيرها فتبادره قائلة:

«تعالَ يا عجاج أعطيك بعض الحلوى وانصرف لتلعب مع أولاد الجيران».

تملأ الجدّة جيبها بقطع السكر وتتوجّه نحو السّاحة باتجاه الأطفال، بدا الصغار المندفعون خلف الكرة صاخبين يتصبّب عرقهم على أطراف وجوههم، يتراكضون خلف الكرة المطاطيّة في السّاحة القريبة من بيتهم، وقف يتأملهم وفي داخله خجل من التّقدم خطوة، شعرَ بدفءِ كفّ جدّته وهي تدفعه ناحية السّاحة ليركضَ مع الصّبيان، أخذ يركض ويندفع بقوّة أمامهم، ممّا جعلهم يهابونه ويرون فيه قوةً تفوق قوّتهم، فكان هذا كافيًا لإثارة المرح في فؤاده، واصل الأطفال التّصفيق والهتاف بأصوات يعلوها الصّخب الممزوج بالفرح، وقلب الحاجّة ينعم بالرضى إثر نجاحها في جعله ينخرط مع أقرانه.

تقضي الحاجّة وقتًا كبيرًا في أعمال المنزل، غسل الثّياب ونشرها على أحبال الغسيل المعلقة على السطح، رشّ السّاحة بالماء وكنسها، غسل الأطباق، مسح الأرض وانتهاءً بإعداد وجبة العشاء قبل أداء الفريضة والخلود للنّوم.

في أيّام الدوام المدرسي، تقوم فايزة بتجهيز طعام الفطور، وجبة دسمة من البيض المقلي بزيت الزيتون، وصحن من الزيت، وآخر من الزعتر، إلى جوار حبّات من الزيتون الكبيس، وأكواب الشاي الّتي تتصاعد منْها خطوط البخار المتموّجة على سفرة الفطور المتواضعة، بينما الحاجّة تقوم بترتيب الفراش ونفضه، وتقش السّاحات الأمامية للمنزل بعد رشّها بالماء، وتطعم الدّجاجات ثمّ تجهز ملابس حفيدها أثناء تناوله لفطوره، لتقوم بعدها بإعداد لفائف الزّعتر وتضعها في كيس بلاستيكي فيأخذها معه لتناولها في الفسحة المدرسية، تزيد من عدد اللّفائف فقد يتشاركها مع رفاقه.

كان يترافق مع زيد وهند للّعب في الحيّ، يقضون أوقاتهم معًا من بعد تناولهمْ لوجبة الغداء، وأداء فروضهم المدرسيّة إلى أن يحين وقت المغرب، هندٌ فتاة مرحة وهو هادئ، قويّة لم يجرؤ يومًا أن يختبر قوّته أمامها، فلديها دائمًا ما يميزها عنه إضافة لشرائطها الملوّنة التي تزين بها شعرها المجعد، أمّا زيد فقد كان أكثر هدوءًا منها، ولكنّه يبدو صاخبًا إذا ما قورن به، كانوا صغارًا تعلموا الكثير معًا، تمحى الكثير من الفروق الكبيرة حين نغرق في التفاصيل الصغيرة لا أحد يستطيع تغيير هذا أبدًا.

مرّت أيام الطّفولة الطّويلة كشريط سينمائي يمكن وصله ببعضه ليشمل عرضًا جميلًا، فلم يبقَ فيه سوى اللّحظات الجميلة التي قضوها بمطاردة الجراد والفراشات، حاملين نبات «المُقرة» بوروده الصفراء

النّفاثة الرّائحة، وعبثهم بالتربة الحمراء والطين المبلّل، تنافسهم في لعبة الغمّيضة، الحَجْلة، الجَري ولعبة سبعُ حجار.

في مواسم الحصاد يأتي النّوَرْ «الغَجر» ليقيموا في بعض السّاحات الفارغة بين البيوت، يقومون ببيع منتجاتهم من الحليّ والأواني الخشبيّة والمنسوجات، يقومون بمقايضتها ببعض الحبوب والطعام مع سكان البلاد فهذه عادة سنوية لهم، كان الصغار ينتظرون قدومهم كمن ينتظر غائبًا يراقبونهم عن قرب، تطوف في مخيلتهم الكثير من الأفكار الغامضة، لطالما نهرتهم نساء البلدة عن الاقتراب من خيامهم، تدور الحكايات أنّهم يخطفون الصّغار، وربّما يستبدلونهم، لا يوجد أحد من أطفال البلدة لم يتساءل إن كان حقًّا قد عاش في خيامهم يومًا؟ يعدُّ هذا جزءًا من الذّاكرة الشّعبيّة للمكان.

الذّاكرة الشّعبيّة

كانت الحاجّة آسية تمثّلُ الذّاكرة الشّعبية في ذلك الحيّ من القرية، تحكي الكثير من الحكايات أثناء جلوسهم في الباحة تحت ظلال الزّيتونة الرّومية الكبيرة، حيث تتمايل ظلالُ الأوراق على وجوههم محرّكة معها النّسام الرّطبة فتخفّف من وهج النّهار، بينما تزيد حكايات آسية من وهج الذّكرى الذي يوشك أن ينطفئ، فيما يواصل عجاج قذف كرته القماشيّة الّتي صنعتها له فايزة من جوارب ممزّقة، وفي أحيان كثيرة يمسك كتابه المدرسي يترنّم ببعض القصائد الشّعرية في واجباته المدرسيّة، قصائد المطر والطّبيعة لسليمان العيسى في مناهج الابتدائية وقصائد شوقي وحافظ إبراهيم في الإعداديّة.

في مرحلة متقدّمة من بلوغه صار يقضي النّهارات في مساعدة الأهل في أعمال المنزل، يعمل على سقاية الأشجار والنّباتات في الحديقة، يشذّبها ويزيل الأعشاب الضّارة، الحديقة في أواخر الرّبيع، وبدايات الصّيف تحتاج للكثير من الجهد ليتمكّنوا من القضاء على الحشائش الضّارة، قبل يباسها وتحولها لأوكار للحشرات الزاحفة، يمثّل سعد الخبايا الشهر الأكثر خطورة للدغات العقارب والثّعابين الّتي تتربص بين الأجمات، وحتى بين الحجارة المتراكمة؛ فهي تعتبر سياجًا طبيعيًّا

بين مختلف البيوت في البلدة، البيوت التي تتراص وتتلاصق بحميميّة تنعكس دفئًا على قلوب أهلها، لا يفصلها سوى تلك الأجمات أو بعضًا من الأشجار الحرجيّة السّامقة تتراقص في فضاء البلدة، وأشجار زيتون ورمان وبعض من شجر الحور تتناثر في الجوار، تردد جدته على مسامعه أمثالها المعتادة: «سعد الذابح لا باب انْفتح ولا كلب نبح، سعد بلع طاب الماء وانبلع» تجدد كلماتها وترقق صوتها:

«إذا طلع سعد السعود لانت الجلود وذاب كلّ جمود واخضرّ كلّ عود وانتشر كلّ مصرود وكُره في الشّمس القعود»، تحرك يديها وتشير لسيقان بعض النبات وتضيف

«بسعد السّعود يدبّ الماء في العود ويدفأ كلّ مبرود» تعود لتحرك سبابتها في الهواء: «سعد السعود سلّاخ الجلود» كناية عن شدّة البرودة في هذا السعد.

تصمت الحاجّة فيتساءل عجاج: «وأيّ السعود هذا؟»

تجيبه وهي تقطف أوراق الزّعتر الخضراء بيديها المتغضنتين: «إنّه سعد الخبايا تستيقظ الحيوانات من السّبات الشّتوي، الأفاعي والعقارب».

تتوقّف وتتمتم في سرّها: «أعوذ بكلمات الله التّامة من شر كلّ هامّة» ثمّ تستطرد: «وكذلك باقي الحشرات والنبات»، ويبدأ الربيع في الظهور، فكل ماهو مختبئ يا ولدي يكشف عن نفسه في سعد الخبايا.

تعجبه هذه الأسماء كثيرًا، ويرددها في عقله طويلًا، وقد تبيت معه ليلته محاولًا أن يحفظها.

يمتلك أبوه الوجيه محمود الكثير من الأراضي الزّراعيّة، يعتبر رجلًا ملاكًا إلّا أنّه يهوى العمل بيده، يحدّث عجاج وهو يعمل معه في حاكورة المنزل يجزّ الحشائش الضّارة بمنجلٍ صدئ من تحت أشجار الرّمان، تتقاطر من جبينه قطرات من العرق لتهوي على قميصٍ بُني يرتديه مع سروال طويل، بلون غامق يقضي به نهاراته داخل المنزل: «العمل قيمة يا ولدي»، يلقي جملته ويتابع انهماكه في عمله.

يستمع عجاج بصمت، يحرّك رأسه مجددًا، يغمض عينيه ويفتحهما بحركة عشوائية ويتحرّك تبعًا لتعليمات والده. يعود الوالد مردفًا: «كلّ هذا سيؤول لك بعد موتي».

يغمغم عجاج : «الله يطوّل عمْرك».

«هذه سنّة الحياة!» يجيب والده.

تقاطع فايزة، التي كانت تستمع للحديث وتجلس على مقربةٍ منهم تحزم ضمائم من البقدونس والنّعنع الطّري لتبيعها على دكّان البلدة، بقولها: «تحدّث بغير هذا يا أبا عجاج، مازلتَ شابًّا، ولو سمعتك الحاجّة ستغضب من فألك، لقد دخلت لتجهز الشّاي فتوقّف عن هذا الحديث قبل أن تعود».

يتغضّن جبين أبي عجاج: «أوه.. النّساء! يحشرن أنفسهنّ فيما لا يعنيهن! إنّها حياتي أتحدّث عنْها كيف أشاء». ثمّ صمتَ وواصل عمله، يجزّ العشب بملامح غاضبة لم تجرؤ فايزة على الحديث مجدّدًا، وبينما عجاج يراقب عن قرب آثر النهوض لينقل الماء من البئر ويعبّئه في جالونات معدّةٍ للاستخدام، وينتقل بعدها ليقوم على مساعدة أبيه فيما يستجدّ من أعمال تختصّ بالفلاحة أو الصيد، وذلك تبعًا للموسم، كما سيجمع أعواد الحطب المنتشرة في الجوار ليضيفها لمخزون الأخشاب.

في أوقات الفراغ وقائلة العصر، يجلس أبوه في غرفة استقبال الضّيوف، يرتدي ثوبًا مناسبًا، ويضع نقاطًا من كولونيا الياسمين بعد أن قام بحلاقة ذقنه، يفعل هذا مرّتين في الأسبوع، يجلس بعدها بجواره دلّة القهوة العربيّة يقلّب محطّات الإذاعة كما جميع الرّجال في عمره يجعلون من السّياسية شغفهم وتسليتهم، يغرقون في تفاصيلها المجنونة، وينْسون معها واقعهم الذي يبعث على السّأم، فالسّياسة تجري في دم الرّجال جريان المخدّر في الدّم ممّا يجعلهم يحتاجون دائمًا لجرعةٍ إضافيةٍ تزيد من قلقهم وتوتّرهم في بيئة عربية تشتعل حوافّها والكثير من مناطقها بنيران الحروب والفقر والجوع:

«ليتهم أبقوا على كرامتنا وعزّتنا كما كان ذلك في يوم الكرامة».

«يا رجل، مازال لدينا ما نحدّث به أبناءنا».

«لقد مشيتُ على قدميّ هاتين في شعاب أرضنا من الشّمال للجنوب، لم أترك مضيفًا إلّا وطرقتُ بابه، كان زمانًا طيبًا».

يبحر أبوه وأصدقاؤه في مركب السّياسة مطولًا، فإذا أوشكتْ على إغراقهم عاد لحكّ رأسه، وفرك يديه بحماس ليمسك بزمام الحديث مجددًا.

لم يكن عجاج يعرف من الزمن إلّا اللّحظة الحاضرة ولحظته هاربة منه، يحاول تجاهلَ أسئلة جارهم الّتي يرميها عليه دومًا ليلتقط لها الإجابات، بَيْد أنّ ذاكرته تنام على تخوم اليقظة، يشعر بها كآلةٍ للتصوير يختفي منها ظلّ الصّور، يراقب عن قرب، يستمع للحديث الممتزج بصوت رشْفات الشّاي المتّتالية من صديق والده القديم جارهم قاسم، بينما الشّمس في الخارج تختفي كأنّما تذوب وراء الأفق، ينعكس ظلّ شفقٍ على واجهة عريضة من السّهول فيشعر بالحديث يذوب في عقله، وله انعكاس طفيفٌ بدا واضحًا على ذاكرته.

في صبيحة يوم جديد داعبَ وجنته شعاعُ النّور المنسلّ من النّافذة بجوار فراشه، فتقلب على جانبيه، وفي عينيه أثرُ النّوم فنهض طاردًا إيّاه مادًّا ذراعيه باحثًا ببصره عن جدّته، يسير بخطوات متقاربة متّجهًا ناحية الحمّام ليغسل وجهه، وقف بعدها أمام المرآة متأملًا صورته محرّكًا عينيه بحركات عشوائيّة، ثمّ اتّجه نحو خزانة الثّياب ليوجّه نظرةً فاحصةً محاولًا اختيار ما سيرتدي، على الرغم من قلّة خياراته فليس هناك الكثير من

قطع الثياب، وعلى غير عادته في يوم العطلة، ارتدى بنطالًا أسودَ وقميصًا أبيضَ مقلّمًا بخطوط رفيعة، هذا زيّ الفتيان في بلدته عند ذهابهم للمدرسة أو في زيارة خاصّة، أو عند ارتيادهم للسّينما في المدينة، اليوم يوم خاص، موعودون بزيارة أقارب أمّه- رحمها الله- من البلدة المجاورة، لم يكن ليغير ثيابه المريحة التي يقضي فيها سائر النّهار في فضاء المنزل الخارجيّ دون سبب، شعر أنّه يشبه الأعياد في استعدادته، تنظيف لمداخل البيت، ترتيب المُهمل من الأشياء، وجولة تفقديّة يشرف عليها أبوه بنفسه.

قدورُ لحم الضّأن تفور على موْقد النّار المُشتعل في الفناء الخلفي للمنزل، تقابل باب المطبخ من الجهة الأخرى، حيث اعتادت الحاجّة أنْ تحتفظ بأكوام الحطب والخشب لحين حاجة.

بيتٌ عربيّ واسعٌ، مبنيّ من الحجر المبزّر الخالص من الخارج، ومطليٌ من الداخل بلونٍ أبيض في نصفه العلوي، والجدار السّفلي مطليّ بأبيض لامع، يقطعه ممرّ، أو موزّع الحجرات، تتوسّطه ساحة أماميّة أوْ ما يعرف بالبرندة، ولكن بها يختلف قليلًا عن البيت الشّامي المعروف، يبدو حرًّا ومفتوحًا على الخارج، مكشوفًا للشّمس والهواء من واجهته الأمامية الجنوبيّة؛ تفتح جميع الحجراتِ أبوابها باتجاه البرندة؛ حيث تقضي العائلة وقتها في ظلّ الشّجرة الممتدّ على السّاحة، الحجرات موزّعة على أهل المنزل، الشرقيتان المتجاورتان لعجاج وجدّته، والغربيتان لأبيه وزوجته..

وفي المقدّمة المضافة ببابٍ خارجي، يلاصقها حجرة أخرى، وبجوارها المطبخ الذي يفتح ببابٍ ثانٍ على الفناء الخلفي والمخزن، وبناء صغير منفصل كانَ لقضاء الحاجَة:)الخارج(أو الحمام.

يجلس عجاج مُستلقيًا على ظهره في مكان قريبٍ من الموقد يحاول استرجاع ذكرى آخر زيارة لأقاربه، ويتذكّر تفاصيل ذلك اليوم المشابه للّحظة ذاتها، أحسّ أنّ الأيام تكاد تكون متشابهةً إلى حدّ يورث السّأم.

دائمًا ينشغل بالتفكير بالماضي الذي يجهله، فينسى الحاضر معه في محاولة لتركيب صور ذاكرة مهمّشة؛ تشغله كثيرًا قدرة الذّاكرة على الاحتفاظ بالتّفاصيل الصّغيرة للحياة، يبحث بِنَهمٍ عن وجْه أمّه في بقايا الصّور المحفوظة في علبةٍ من الصّفيح تآكلت أطرافها، أشغل بالَه صورةٌ لها بالأسود والأبيض وهو بين ذراعيها، صغيرٌ ملفوف بقطعة قماش توحي أنّها في ذات يوم ولادته، أراد معرفة تفاصيل ذلك اليوم، وكم تمنّى لو كان يملك ذاكرةً تستطيع الاحتفاظ بتفاصيل اللّحظات اللّاحقة الّتي جمعته بأمّه أو ما بعدها! منذ ذلك الوقت زاد شغفُه بالذّاكرة ورغب أنْ يبحث أكثر.

لاحظتْ جدّته تحديقه بالصورة فأشفقت عليه، وقالت: «أشعرُ كأنّي أراها في ذاكرتك». ثمّ عادت وأردفت: «كنت تستلقي بجوارها على ذات السّرير في غرفتك، أذكر ذلك الغطاء الكتّاني جيدًا الذي لفَفته

حولك- إشارةً للصّورة-، لقد احتفظتُ به في صندوق أمّك، ولا يزال هناك بين الأشياء خاصّتك». صمتت ثمّ ثنت: «رحمها الله، لقد ورثتَ عنها الكثير؛ ابتسامتك وفطنتك جزءٌ من هذا الكثير». وعلى مقربة منهما بدا على نوريّة الاهتمامُ ورغبتُها بالحديث فقالت بأسًى: «أتذكّر ذلك اليوم من منتصف شهر كانون الثّاني، والمطرُ ينهمر خارجًا، كنتُ لا أزال عروسًا، لم أتردّد بالحضور فوْر سماعي لخبر ولادتك، أُصبْتُ بعدها بالبرد، لم أرقد... وكنت أزوركم كلّ يوم، مرّت سنواتٌ على ذلك اليوم، كان لديك أمٌّ سعيدة بك، لقد فُجعنا بموتها بتلك الحمّى». تنهّدت الحاجّة آسية، وعقّبت: «رحمها الله، أنْهكنا فراقُها!» صمتت برهة وتذكّرت فقالت: «وأطالَ الله في عمرك يا نوريّة؛ فأنت من أهل الدار».

بدا على عجّاج مسحةٌ من حنين لأمّ لم يتذكرْ ملامح وجهها يومًا سوى في أحلامه، وقد كان له مخيّلة واسعة لكنّ ذاكرته لم تكن تساعده منذ اللّحظة التي فارقه وعيُه فيها إثر غُصّته بحبّات السليق، لم يكن يستطيعُ أن يعبّر عن ذلك حين كان صغيرًا، لكنّ جدّته تشعر بأنّ هناك شيئًا ما يجعله مختلفًا عن طفلٍ في مثل عمره، وعلى الرّغم من ذلك نجحَ في رسم تفاصيل ذلك الوجه تبعًا لقلبه.

تنهّدت الجدّة واسترجعت وأشارت لنوريّة بالصّمت، تفكّرت في نفسها: لقد اضطرّها موتُ والدة حفيدِها إلى أن تقوم بدور الجدّة والأم، يبدو هذا مُنهِكًا لامرأة في سنّها، زادت المسئولية المُلقاة على

عاتقها مع الأيّام. بقيت متسمّرة في مكانها لبرهة، تحرّكت بعدها صوبَ المَوْقِد المُشتعل، تناولت قطعةً من اللّحم الهبيط؛ وهو لحمٌ بعظمه يُسلَق بماءٍ ومِلح يتمّ طهيُه في المناسبات، تفحّصت اللحم بيدِها لتتبين نضجَه، غرفت المرقَ ووضعته في بُرمةٍ نحاسيّة، وحملت اللّحم على طبق.

لم تسمعْ فايزة ما دارَ من حديث، تتجنّب الحاجّة ذكر أمِّ عجّاج أمامها حفاظًا على مشاعرها، فهي تعرف جيدًا مشاعرَ الغيرة الّتي تتملك المرأة في موقف كهذا، كانت في المطبخ تجهّز الثّريد من الخبز والمرق، أخذت اللحمَ وقامت برصّه في طبق وتحتَه طبقة من البرغل المشرّب بزيت الزّيتون، وهو الطبق الشّعبي الأكثر شهرة في البلاد قبل أن ينتشر الأرزُ ويقضي على الكثير من تقاليد الطّعام المصنوع من القمح.

في بيت أبي عجّاج تحافظ النّسوة على التقاليد، وللطّعام أصول وفنون يعرفْنَها جيدًا، كثيرًا ما كان يسمع جدّته متمسّكة بمقولة (العادات والتقاليد في المكان هي سُنن وقوانين يُقتضَى احترامُها لأنّها تُحافظ على بقاء المكان عامرًا بأهله).

البساطة تجتاحُ المكان، لا تتّسع الحياة ليقدّم أحدهم وقته كاملًا فيبحث وراء هدوء وصمتِ طفلٍ صغير، أو حتّى مراهق، لم يكن هناك ما يكفي من الوعي حتّى يشعر أحدُهم بما يدور في خلدِ طفلٍ فقد أمّه صغيرًا، وما أحسّه من فقدِه لجزءٍ من ذاكرته بعدها، ليعاني وحدةً في

فؤاده، وفجوةً في عقله، وحدَها أمُّه كانت قادرة أكثر من غيرها على تلمّس حاجات ابنها لوْ كانت على قيد الحياة.

دخل الخريفُ، وللمواسم طقوسٌ خاصّة، وليس هناك أجمل من الرّيح المحملة بلسعة بردٍ شتوية بعد صيفٍ حارّ، في هذا الوقت من السّنة تنتشر في الجوّ رائحة مخلفات عصر الزيتون، فهذه أيّام قِطافه، ويشكّل ثمن المحصول دخلًا مُهمًّا تعتاش منه أغلب البيوت في البلاد، وبيت أبي عجّاج واحدٌ من هذه البيوت.

يخرج زيتُ الزيتون البكْر، وكلّ أشكال الزّيتون المخلل بالزيت والماء- الرّصيع- من الأرض المباركة، طقوسُ المواسم الخاصّة يستعذبُها الكبار، ويتأفّف منها الصّغار، فليس أقْسى عليهم من تسلّق شجرةٍ في صبيحة باردةٍ بيديْن متقشّرتين من أثر ريح (الشّراقي) التي تهبّ في مثل هذا الوقت. في المساء يعود الرّجال بالغلال على دوابّهم، يعمل البعض بأجرةٍ يوميّة أو بنسبةٍ من المحصول، والذي يتمّ جمعه في البيت، ثمّ يُنقل باتّجاه المعصرة التي تدارُ بالآلات البسيطة، وعلى مراحل عديدة يتخلّلها يدٌ عاملة، تعملُ على نقل الحمولة وتفريغِها ثمّ غسلها ووضعها تحت حجر العصر لينزل الزّيتُ كأنّه نورٌ مضيء ليُعبّأ في أوعية من المعدن أو البلاستيك، ويعود الفلّاحون بمحصولهم الذي سيقيمُ أوَدَ بيوتهم وأسَرِهم لشهور قادمة. وبما يشبه ذلك الحجر في معصرةِ الزيتون، يدورُ حجرٌ آخر في خلد عجّاج، يعتصر لحظاته وذكرياته،

فلا يبقى منها إلّا ما يمرّ بقلبِه، فيشكّل ميضأة تشتعل بفتيلِ الذكرى المُحترقة، والتي لم يبقَ منها إلّا وهَجُها. وفي المساء حين تنطفئ شعلةُ الأفق بجمرة الشّفق الداكنة، تشتعلُ أحاديث خاصّة يتبادلونها وهُم يتناولون أرغفةَ الخبز السّاخن المغمّس بزيت العصْرة الأولى، يتنافس على تذوّقها كلّ مَن يحضر هذه المواسم؛ فللزّيت بركةٌ يؤمن بها أهله، وللأحاديث مفعولُ الدواء، نتناولها بجرعات غير محدّدة؛ فتساعدنا على البُرْء من نُدَبِنا وآلامنا سريعًا، كما للخبز نكهةُ الحياة بمعناها المجرد.

إلى جانب طقوس العمل تنتشر طقوسُ اللّهو؛ كاللعب بالجلول- كرات الدّحل- لدى الصّغار، بَيْد أنّ المراهقين الأكبر سنًّا لهُم طقوسٌ أخرى.. كان عجّاج أحدهم، يعشق السّينما فيدّخر جزءًا من المال الذي يحصل عليه حين يعمل مع أبيه في حقل الزيتون، ولا يألوا جهدًا في أن يقوم بالكثيرِ من العمل ليحصل على المزيد، فهو يعرف أنّ نهايةَ الأسبوع ستكون حافلة، حين يجتمع بأصدقائه لمشاهدة الفيلم الجديد في صالةِ السّينما في المدينة، والذي يظلّ حديثهم لفترة طويلة، يعجبُهم أبطاله، وربما تتعلّق قلوبهم بتلك الفاتنة الّتي تمثّل دور البطلة، فيتنافسون على اقتناء الصّور من الأكشاك التي تنتشر في عدّة أماكن لتبيعها مع أحدث الكاسيتات المسجّلة للأغاني الحديثة، والقديمة أيضًا.

إنّها حقبة أواخر الثمانينيّات، صناعة السينما تزدهرُ وبقوّة، وهناك الكثير من صالات العَرْض في المدينة. كان الأصدقاءُ يتناقلون تفاصيل

الفيلم لفترة طويلة يضيفون وينقصون، كما يكرّرون مشاهدةَ بعض الأفلام المفضّلة لهم مرّاتٍ عديدة، وما يتبقى من النّقود في جيوبهم يصرفونَها على شراء أقراص الفلافل السّاخنة من (أحمد الفلافل)، أو يحصلونَ على وجبة أدسم من لفائف الشاورما من كافتيريا (الشّباب)، إلى جانب علب الصّودا الباردة وأطباق الحلويات كأصابع الكنافة بالجبن أو الهريسة المحشوّة بالفُستق والبقْلاوة والعوّامة من عند حلويات (الشرق) أو (العفوري)، يشتري عجاج طبقًا صغيرًا منها لأسرته يطلبُ من البائع أن يشكّل الأصناف، ثمّ يعْرج على محمّص (القدس) لشراء بعض البزر الأسودِ والقضامة البيضاء المُقرمشة لفايزة، والصّفراء الطّرية لجدّته؛ فتكون مشترياتُه رفيقًا له في عودتِه للبلدة بعد أن يضيف للقائمة حبّات اللّيمون الحلو والمندلينا من على عربة الفاكهة بجوار الحافلة في المجمّع، وكيس من سكاكر (التشعشبان) وحلو (المُخشرم)، وقد يفعل زيد مثله أحيانًا.

لمرّات عديدة نبّهته جدّته أن يستثمر نقودَه في شيء ينفعه، كأنْ يضعها في حسابٍ بريديّ بدلًا من إنفاقها على ما لا ينفع، فمخيّلتها كامرأةٍ مسنّة عاجزة عن تصور تلك التفاصيل الهامّة لدى الفتيان والفتيات في مثل هذا العمر، وربما ينطبق هذا على كلّ مَن تغيب عنه المعرفة والتجربة. «إن كنت لا ترى ما خلف الستار فهذا لا يعني أنّه غيرُ موجود». حدّث عجاج نفسه بهذا، لم يعرف أنّه عَجْزٌ من نوع آخر

لا يمثّل نسيانًا؛ بل هو قصورٌ في الإدراك لتجربةٍ لم تكن مُعاشَةً بالنسبة لأحدهم يومًا فلم يُحطْ بها علمًا. يبدو شغوفًا بنهاره، ولم يعد يعبأ بتلك الذّكريات كثيرًا، فهل يمكن أن يعيشَ الإنسان في لحظته الحاضرة دون ماضٍ يتذكره؟ لم يأبَه؛ فقد حان وقتُ اليوم الموْعود له ولرفاقه مجددًا للذّهاب للمدينة لمشاهدة السينما والتجوّل عبر الأسواق، فما يعيشه هو لحظةٌ راهنة، مخيّلة وأمل للمستقبل.

أمل

المستقبلُ هو ما يشغلُ تفكيرَ والده الوجيه محمود، وها هو الصّيف عاد محمّلًا بريح دافئةٍ تحمل أشعّة الشّمس المتوهّجة أثناء النّهار، معلنةً معها قدومَ الأجازة الصيفية. وفي خطوةٍ منْه لصناعةِ هذا المستقبل يرتادُ مع والده مكتبَ ارتباط للدراسة في الخارج، بعد أنِ اجتاز اختبارَ الثّانوية العّامة بمعدّل مرتفع، واستطاع بذلك أن يحصلَ على فرصة بعثةٍ جامعيّة في إحدى جامعات مدينة لوس أنجلوس الأمريكية، فالتخصّصُ العلمي الذي يرغب بدراسته غير مُدرَجٍ في نظام الجامعة في العاصمة عمّان.

في طريق عودتهم للمنزل، خامرت مخيلتَه أفكارٌ كثيرة بقي غارقًا فيها، وما أنْ لاحَ ظلّهم عند بوّابة الدّار حتّى أطلقت فايزة زغرودةً عالية صدحت في الأرجاء، وتخطّت بصَدَاها لتسمع الجيران؛ فالفرحةُ اليوم كبيرة، ابتسامة عريضة أضاءت خطوطَ الزمن في وجه جدّته، لقد اجتاز هذه المرحلة الصّعبة من حياة الطالب، ويعدّ هذا إنجازًا كبيرًا ومبْهجًا للجميع. استلقى أبوه في الظّل قرب الحاجّة كأنّما عاد لأيامٍ يفوعتِه، ورفع قدميْه على كرسيّ صغيرٍ بالجوار، حرّك يديه قائلًا بانتشاء:

«سيُسافر إلى أكثرِ البلاد حضارةً وقوّة على وجه الأرض في هذا الزمان، إلى أمريكا!» فكّر في سرّه: «سيكون لي متّسعٌ من الوقت أنْ أتحدّث حول هذا مع أصدقائي، وليتني أستطيع أنْ أسافر معه ولوْ لمرّة واحدة!»

سمعَ أنّ تلكَ البلاد هي جنّةُ الله على الأرض، والنّساء فيها بجَمال حوريات؛ لو تمكّن من أنْ يفعلها ويتزوّج بإحداهنّ، لقد حصلت فرصةٌ مشابهة لصديقه في العسكرية؛ أبي وليد الذي سافرَ لتحسين معاشِه ولم يَعُد، يقولون إنّه تزوّج وحصل على الجنسية، ندّت عنه ابتسامةٌ عريضة فتلألأت عيناه، ولكنه استفاق على صوت فايزة: «الشّاي يا أبا عجّاج».

«أووه.. الشّاي! لقد أفسدتِ عليّ خيالاتي! أنا أفكّر في المستقبل».

«والله أنا لستُ مطمئنّة لتلك الدّيار يا رجل، أخشى على ولدي».

«ولِمَ تخشيْن عليه؟ اتركيه يبني مستقبلَه؛ فهذه فرصتُه». صمت ثمّ أردف: «سيكون مدلّلًا بين الشّقراوات». كزّ على أسنانه، وتحدّث في سرّه: «ليتَه يساعدني في أن أسافر أنا أيضًا!»

فايزة وقد زمّت شفتيها، وحجّرت عينيها قائلة: «شقراوات! ها... أين تشرد؟»

كانت الحاجّة على مَقْربة منهم تجهّز حقيبة السفر، وتستمع للحديث، فقالت وهي تبتسمُ، وتكاد تعرفُ ما يفكّر به: «اتركيه يا

فايزة، يبدو أنّه يحلمُ كثيرًا، وسيصحو على واقعه!» تمطّى وتمتمَ بصوت خفيض يشِي بغبطة: «يفضّلنه علي!»

أعدّت جدّته حقيبةَ السفر؛ القمصان التي يفضّلها على غيرها، وبعض المنامات المريحة والجديدة، اشترتها له من البائعة الدوّارة، وحزمت مجموعة من الأحذية الجيّدة وبعضًا من الجوارب، وضعتْها في كيسٍ بلاستيكي، وركنتها في زاوية الحقيبة، إنّها المرّة الأولى الّتي يسافر فيها، كما أنّه ليس معه أحدٌ من أصدقائه الذين عرفهم في المدْرسة أو الحي، لا يعلمُ إنْ كان سيلتقي بأحد بلديّاته في تلك الديار.

حزمَ الحقيبة، وودّع فايزة بصمت، طالعته بعيونٍ تُغرقها الدموع، ثمّ انْحنى وقبّل رأس الحاجّة التي كانت تختنقُ بصمتها، حمَل حقيبته، دفعته بيدِها الحانية نحو الباب.. ببصرها الضّعيف تتبّعت ظلّه الذي بدأ يغيبُ خلف منحنيات الطّريق، كان ضوء النّهار يلعب في الفناء خارجًا، وبدتْ عيونه والدّموع المتحجّرة فيها كمرايا صقيلة تعكس الضوء.

في رحلتهم للمطار استقلّوا تاكسي، وخلال مرورِهم بالعاصمة بدتِ الشّوارع مكتظّة، إنّها مدينة عمان، تتنفّس نهارًا وتنام ليلًا، عددٌ لا بأس به من السيّارات الفارهة يمكن ملاحظتُها مدسوسةً هنا وهناك بين السيّارات العمومية والأقلّ فراهة، سائق التاكسي الذي يقلّهم

يعتمرُ كوفيّة مخطّطة تغطي نصفَ جبينه العريض، وتكاد تسقط على عينيه، يبدو بارعًا في المناورات، يطلق النّكات ويضحكُ عليها بصوتٍ متهدّج من أثر الدّخان الذي ينفثُه من سيجارته الجولد ستار، السّيجارة المفضّلة التي يدخّنها أبناء الطبقة المتوسطة في عمومهم.

قال السّائق معلّقًا بزهو: «حركة المرور هذه تعتبرُ الأفضل في العالم العربي، فشوارع عمّان هي الأكثر هدوءًا». كانَ والدُ عجاج- بملامحه التي تشبه المكان- توّاقًا ليردّ على السّائق الذي يتباهى بمهارة المناورة بسيّارته، فخطر له أن يناور بكلماته، حدّث نفسه: «لا أحد يعرف كم يُتقن رجلٌ ذو شيبة فنونَ الكلام في ربوع وطننا الممتد! يبدو هذا أصيلًا في جيناتنا». أشعل الوجيه محمود سيجارته ونفث دخانَها عبر النّافذة قائلًا:

«العاصمة لها مكانةٌ في قلوبنا جميعًا، لم يفلح ختيارنا- إشارة لوالده- في إقناع نفسه أن يسكنها، فهو يحبّ أن يظلّ بين أقاربه متعلّلًا بجلسات السّمر اللّيلية في مضافة العائلة الكبيرة، وهكذا نحنُ لا نختلفُ عنه كثيرًا».

تحمّس السائقُ فحلفَ برأس جدّه الذي لم يره يومًا معقّبًا:

«هل تسمعونَ بجبال العاصمة؟ لقد عُرضَ على جدي أحدُ هذه الجبال يومًا لشرائه بثمنٍ زهيد، كان يعمل في إحدى مديريات الدّرك،

له دخل جيّد وعلاقات تربطه ببعض الباشاوات في ذلك الزمن، لكنّه فضّل أن يشتري بدلًا منه قطعةَ أرض زراعية!» صمتَ وتحسّر هازًّا رأسه محوْقلًا، ثمّ عضّ على يده تاركًا المقْود يحركه بيدٍ واحدة! عاد وأردفَ وهو يضع يدَه على الغيار الرّابع لتنطلق السيّارة بفهلوة سائق مُحترف: «لو اشتراه لكنتُ الآن أمتلك عقاراتٍ كثيرة وأسكن في عبدون»، ثمّ لعنَ السّائق حظّه وجدّه معًا، زاد سرعته فأحدثتِ احتكاكًا عنيفًا بين العجلات والطّريق؛ امتقع وجهُ عجّاج، وبدا مكسوًّا بالدّهشة، غمغم أبوه ضاحكًا، واستمرّ في حديثه مع السّائق، الذي كان يوافقه الرأي أنّ العاصمة تحتلّ مرتبة متقدّمة إن لم تكنِ الأولى في نظافة شوارعها وتحضّرها.

وصلَا سريعًا للمطار على إيقاع الحديث الرّتيب من الهموم المشتركة لوالده والسّائق، بدا المطار مكتظًّا بالمسافرين، دفعَ عشرين دينارًا لسائق سيّارة الأجرة الذي كان يتعشّم بمبلغ أكبر، فقد أقلّهم من محطّة الحافلات، وهذه الرحلات تعدّ فرصةً ذهبية للربح، وقد فكّر في انتظار الوالد في رحلةِ عوْدته، لكنّه تخلّى عن عشمِه وتفكيره سريعًا بعدَ وصول راكب جديد ليقلّه. قال السّائق ملوّحًا لأبي عجّاج «أنْ تعود محمّلًا براكبٍ فهذا حظّ كبير!»

لوّح له أيضًا وشكره، وبحركةٍ رشيقة سحبَ عربةً لتحميل الحقائب، وضَعَا الحقائب عليها ودفعاها أمامَهما للدّاخل. جلسا على

أقربِ مقاعد الانتظار يرقبان موعد الطّائرة، سرتْ في أوصالهما برودةٌ خفيفة، فحرارةُ الشّمس في الخارج كانت لاهبة، بينما صالاتُ الانتظار تحظى بتكييف مركزيّ، هناك الكثيرُ من النّاس المتكدّسين في جنبات المطار، ما بين صالات المغادرين والقادمين. مرّت دقائق صامتة ليقطعَ والده الصّمت فيشعل سيجارته ملتفتًا نحو عجّاج بنبرة حازمة، وهو يضع ساقًا فوقَ ساق ويحني ظهره للأمام قليلًا، انحسر ثوبُه العربي الرمادي عن سروالٍ طويل بلونٍ مماثل، عدّل جلسته، ثمّ قال:»عليك أن تكون على قدرٍ عالٍ من المسئولية! إنّها بلاد لا نعرف عنْها الكثير!. وافق عجّاج، وقد سحب نفسًا عميقًا، ولم تكنْ تنقصه الأفكار التي تضرب رأسَه. ثنّى أبوه مجدّدًا:»بياض الوجه يا عجّاج!«. كانت هذه العبارة تعني الكثيرَ في أعْرافهم.. مُطرقًا رأسَه مُحرّكًا عينيه بعشوائيّة وخجل: «بالطّبع».

ارتفعَ صوت المكبّر فوق ضجيج وصخبِ المسافرين ليعلنَ عن رحلة الطّائرة، نظر الوالد في ساعتِه منبّهًا عجّاج لاقتراب موعد رحلته. نهضا واتّجهَا صوب طابور المسافرين، تودّعا وتعانقا بلحظاتٍ صعبة خفَقَ لها قلبُ عجّاج، ولم يكنْ أحسن حالًا من أبيه الذي تحجّرت في مآقيه دموعٌ كثيرة كافية لأنْ تجعله صامتًا لأيّام تالية، تساءل في سرّه إنْ كان سحرُ المدينة المنتظرة يستحقّ هذا العناء، فقاطعه صوتُ المكبّر مناديًا:»الرّحلة التّالية المغادرة من عمّان إلى لوس أنجلوس«.

لوس أنجلوس

تُعدُّ لوس أنجلوس عاصمةَ الإبداع في العالم؛ فمعظمُ سكّانها من الفنّانين، الكتّاب، صنّاع الأفلام، الممثّلين، الرّاقصين والعازفين.. واحدٌ من كلّ ستّة أشخاص من سكّانها يشغل إحدى الوظائف الإبداعيّة، ويتحدّث أهلُها بأكثرَ من ٨٦ لغة مختلفة، إنّها المكانُ الأروع لانتشار ثقافات العالم وتمازجها.

لدى وصولهم للمدينة استقبلَهم رجلٌ متوسّط الطّول، قويّ البنية، يرتدي زيًّا رسميًّا أسودَ، بياقة عريضة. قدّم نفسه: «مرحبًا، أنا مستر جون، مندوب مكتب الارتباط التّابع للجامعة، تنتشر فروعُنا في أكثر من عشرين بلدًا»

مجموعةٌ من الطلّاب من أعراق مختلفة وجنسيّات متعدّدة استقلّوا الباص، سار بهم حتّى وصلوا لساحة الجامعة، جلسوا في حلقة دائريّة يتوسّطهم مستر جون، ثمّ قال: «أتعلمون شيئًا يا رفاق؟ أنتم الأكثرُ حظًّا!». صمتَ مُتنقلًا ببصره بين الطّلاب، والذين لم يدُرْ بخلدهم لماذا اعتبرهم مستر جون الأكثرَ حظًّا! لكنّهم اكتفوا بالتّحديق مُنتظرين أن يكمل فأردفَ قائلًا:»لَمن لا يعلم منكم؛ فالمدينةُ يا رفاق تقعُ في جنوبِ

غرب ولاية كاليفورنيا، على ساحلِ المحيط الهادي في الولايات المتحدة الأمريكيّة- استدرك ضاحكًا- وأُطمئنُكُم أنّ هذه الحلقة ليست حصّة عن جغرافيا البلد بالتّأكيد!». همس أحدُ الطّلاب العرب لعجّاج:»يبدو أنّ القوم لديهم حسّ الدعابة أيضًا! لسنا وحدَنا في هذا الكوكب!» عاود الجميعُ التزام الصّمت بعد أنْ أردف مستر جون:»إنّها ثاني أكبر مدينة من حيث عدد السّكان، سكّانها من عرقيّات وأصولٍ مختلفة، ممّا جعلها أحدَ أهمّ المراكز الثقافيّة والاقتصاديّة والعلميّة في الولاية». صمتَ برهة ووجّه سؤالًا:»هل لدى أحدكم فكرةٌ عن معنى اسم المدينة؟»

تحدّثت إحدى الطّالبات الجُدد، وهي ذات بشرةٍ ناعمة، وعيون غائرة، تبدو بملامح شرق آسيوية واضحة قائلة: «اسمُ المدينة يعني الملائكة باللغة الإسبانيّة»

تحدّث جون موجّهًا كلماته للطالبة: «هذا رائع! هو اختصارٌ لاسْمها (بيوبلو دي نيسترا سينيورا لا رينا دي لوس أنجيلوس ديل ريو دي بورسي نكولا)، ويعني قرية السيدة العذراء». أخذ شهيقًا وندّت عنه ابتسامةٌ بعد ملاحظته ملامحَ الدّهشة على الوجوه، ثمّ تابع: «ربما ترغبون بمعرفة معالِمِها السّياحية بصفتكم طلابًا جددًا ستقيمون في المدينة لفترة طويلة؛ لذا عليكم أن تعرفوا أنّها من أشهر المدن حول العالم، التي تضمُّ العديدَ من الأماكن السياحية: جريفث بارك الذي يعدّ واحدًا من أشهر المنتزهات حول العالم، قد يهمّكم أيضًا

سوقُ المزارعين في مدينة لوس أنجلوس فهو يحتوي على العديد من المحلّات التي تبيع الخضروات الطازجة والبضائع ذات الجودة العالية، ولا يفوتنّكم التّعرفُ على متحف الفنّ المُعاصر الذي قام بتصْميمه مهندسٌ معماري ياباني، ويقومُ الفنّانون بعرض أعمالهم هناك؛ حيث أنّه مبنًى مطليٌّ باللّون الأحمر من الداخل والخارج، ويوجد في سقفه فتحةٌ لدخول أشعّة الشمس منها. إنّه متحف هوليود التّاريخي». صمتَ لبرهةٍ منْتظرًا أسئلة الحضور. بدتْ ملامح الفخرِ واضحةً على وجه الفتاة الآسيوية؛ ممّا جعل البعضَ يتهامسون أنّها يابانية! دارَ القليلُ من الحوار بين الطّلاب ومُضيفهم مستر جون ليعود موضّحًا: «غدًا ستأتي مندوبةُ الجامعة لتوزّعكم على الأسر الحاضنة، وهذا ريثما تهيّئ لكم الجامعة سكنًا مناسبًا، هناك حجزٌ لكم في فندق خاصّ لهذه الليلة فقط». صمَتَ ثمّ أضاف: «سنُكمل جولتنا في ساحة الجامعة للمشاركة في حفل استقبالِ الطّلبة الجدد، كما سنتعرّف على مرافق الجامعة».

خلال جولتهم تنقّلوا بين المباني الضّخمة للكليات، مراكز البحوث، مقرّ عمادة شئون الطلبة، رئاسة الجامعة، المرسم، متحف الطبيعيّات، الكافتيريا، وقد أنْهوا جولتهم أمام مدرّجات المكتبة..كانت القبابُ سّاحرة مبنيّة بطريقة معْماريّة تماثل بناءَ الكنائس في القرون الوسطى، وتلك الأعمدة الرّومانية التي طالما شاهدَ مثيلاتها في المناطق الأثرية، في جرش، جدارا، أربيلا، والمدرّج الرّوماني في بلاده، لكنّها هنا

مبنيّة بطريقة معماريّة حديثة، وكأنّ مداخلها هي ذات مداخل المسارح وقاعات الأوبرا، لا تترك تلكَ النقوش فرصةً للنّاظر ليتفقد مواطئ قدميه، وكأنّ الحضارة قد توقّفت هنا، أيُّ فجوة تلك التي تفصل بين عالم الشرق والغرب! مخطئ مَن يظنّ أنّها تحتاج ترابًا وحجارةً لردْمِها! فما هو أسهل من ذلك بناءُ جسر معلّق من المعرفة يصل كلا العالميْن ببعضهما.

شجرةُ الذّكريات

بالقربِ من أحد الجسور المعلّقة التي تربطُ معالم المدينة ببعضهما، يقودُ درّاجته الهوائيّة التّي اشتراها مؤخّرًا في طريقه للكلية؛ ليتفادى الازدحامَ المروري على الرغم من صعوبة ذلك، ففي ظلّ الازدحام الخانق الذي تشهدُه المدينة، وأثناء مروره من جِوار الحديقة العامّة، الّتي يعدّها علامة بارزةً لتجاوزه الحيّ السّكني، يودّع شجرتَه المفضّلة، سنديانة معمّرة على مشارف الممرّ الرئيسي في الحديقة، في ذاكرته معمّرة مثيلة لها، هي ما تبقّى من ذكرى ساحة الدّار، حيث اعتادت جدّته أنْ تفرش حصيرًا من الخوص مُفترشة ظلّها، تحتسي القهوةَ مع نوريّة الجارة الأقرب لمنزلهم. ولإعداد القهوة طقوسٌ خاصّة؛ حيث تنتقي جدّته الجيّد من الحبوبِ خضراء اللّون عند شرائها، وعادةً ما يكون هو مرافقَها للسّوق، يسير بجوارها يقلّب نظره في الواجهات الزجاجية للمحلات، تلفتُه البضائعُ المعروضة.. يتوقّف مليًّا أمام محلّ الطّيور المجاور للمحل الذي تتوقّف به جدّته أثناءَ قيامها بانتقاء وشراءِ حبوب الهيل الجيّدة والمستوردة من الخارج، وهي نوع من البهارات المطيّبة للقهوة. في البيت تُحمّس القهوة في (المحماسة) على نار الموقد في السّاحة، حتّى تشقرّ حبيباتها، وتميلَ

لجعلها أقربَ للّون الدّاكن، فهي تعرف أنّ ذلك يمنحها مذاقًا خاصًّا، ثمّ تضعُها على طبق (المبرادة) لتبردَ وتحتفظَ بها لحين استخدامها؛ حيث تقوم بطحنها في(جرن)، وهو وعاء خشبيّ مع مِدَقّ لتحصل على قوامٍ مناسب، ثمّ تغليها في (دِلال) نحاسية تحتفظ بها من أيّام شبابها، على الرّغم من توفر دِلال وأوانٍ معدنيّة جديدة في السّوق، تحافظ على أوانيها النّحاسية، تعرف أنّها تمنح قهوتَها مذاقًا مختلفًا لدى الكثيرِ من زوّارها، تغرف بضْعَ ملاعق من القهوة تضيفها للوعاء النّحاسي الذي يحوي الماءَ المغلي، تتمازج القهوة مع الماء بقوامٍ مناسب، تضيفُ إليها حبوبَ الهيل المدقوقة، فتصبح القهوة جاهزةً للشّرب في (فناجيل)- أكواب خاصّة-، تَسكِب الفنجانَ الأوّل من القهوة لنفسها، وهذا وفقَ ما جرت به العادة، وتصبّ الثّاني وتقدّمه لضيفتها لتحتَسيه ثمّ تصبّ لها آخرَ فتحتَسِيه وتهزّ فنجانها. جدّته لا تفوّت مناسبة احتساءِ القهوة دون أن تقول: «هزّ الفنجان علامةُ الاكتفاء وعدمِ الرغبة بالمزيد».

ثمّ يسمعُها تردّد: «الهيف، الضّيف، الكيف، والسّيف مسمّيات لفنجان القهوة العربيّة؛ فنجان (الهيف) هو الذي يشربه صاحبُ المجلس أمام ضيوفه لإثباتِ سلامة القهوة، فنجان (الضيف) يحلّ محلّ العيش والملح بين المَضيف والضّيف، وفنجان (الكيف) الخاصّ بالتذوّق والمزاج، لطالما تُردّد على مسامعه «القهوة ليست مشروبًا فقط؛ وإنّما جزءٌ من ذاكرة المكان».

لم يكنْ يفصل بين منزلهم وبيتِ نوريّة سوى سياجٍ من القصب، صنعته الجدّة لتمنع توغّل القطط الشّاردة الى أحواض الزرع التي كانت تعتني بها، هذه هي الذّاكرة الأقرب في عقله، والتي مازال يتمسّك بها كي لا تعودَ بيضاء كغيرها، «فهل يمكن للذاكرة أن تكون انتقائيّة؟» تساءل.. «وهل يمكن أن يكون للإرادة من دورٍ خفيّ في اختيار نوع الذكريات؟كمسرح تعبثُ به يدٌ خفية داخل النّفس!» وإلّا كيف له أن يتذكّر مجموعةَ القطط الّتي كانت تأوي إلى منزلهم؟ والّتي طالما اعتنى بها، وقدّم لها بقايا الطّعام؛ وقد كان في أحيانَ كثيرة يصنع لها الحلوى، حيث يضيف القليل من الماء والسّكر والدّقيق ليصنع عجينةً حلوةَ المذاق، ثمّ يخبزها على نار الموقد بعلبة صفيحٍ قديم، ولطالما ظنّ أنّها تروق لمجموعة القطط مختلفة الطباع والفراء! فبينَ الرّمادي الغامق الذي يبدو كعشب محترق ومجزوز، الأسود الخالص، الأبيض الحليبي، والبنّي المشوب بالتموّجات؛ كان يفضّل القطّ البني- صاحب العيون العسليّة والفراء المنفوش- على غيره من القطط فهو أكثرها قربًا منه.. لم تكن القطط مزعجة، سوى أنّها في أحيان كثيرة كانت تخرّب الزّرع، يتذكر أزهار (الخبيزة)، (الختميّة)، و(المريميّة) التي زيّنتْ بها الحاجّة أحواضَ زرعها لتتفتّح في الربيع، وتكون مسرحًا للفراشات التي قضى جزءًا كبيرًا من نهاراته راكضًا خلفها، حتّى تأتي نوريّة ومعها أبناؤها زيد وهند أصدقاءُ طفولته، يشاركونَه اللّعب واصطياد الفراشات، زيد ذلك الفتى الخجول

قليل الكلام بشعْره البنيّ المنسدل على أكتافه كشعْر فتاة، وهند الفتاة الأكثر صخبًا في الحيّ، والأكثر قدرةً على التعبير عن نفسها بالكلمات الكثيرة التي تنزلق من فمها، فهي لا تعرف السكوت! تتحدث في كلّ شيء، وتتحرّك بحركات استعراضية تنمّ عن شخصية مرحة وقويّة، كم تملّكته مشاعرُ من الغبطة تجاهها، تستطيع على الرغم من صغر سنّها أن تقودَ فتيان وفتيات الحيّ في أكثر الألعاب حماسًا، كانت صورةً مصغرة من أمّها! لم يعرف هل قلبُه مغرَم بهند؟ وإلّا لمَ شعَرَ بالغيرة عندما كان يلاحقُها بعضُ الشبّان في رحلة عودتها من المدرسة؟ بدا مستعدًّا لأن يضربَهم جميعًا على الرّغم من كثرة عددهم، هند تبدو امرأةً كاملة وناضجة، اعتقد أنّها استطاعتْ لفتَ نظره على الرّغم من أنّها رفيقة طفولته زمنًا، ربّما هي تعتبرُه كزيد، لقد اعتاد على تواجدها حولَه تشاطرُه ألعابه، مأكله وكلّ سكناته، ولمّا كَبُرا كان يحدّق في عينيها العشبيّتين طويلًا، وحين تزورهم برفقة أمّها يتبادلُ معها الحديث وذكريات الطفولة، وتظهر لديه فجأةً رغبة التّفوق وحبّ الظّهور، شعر بأنّه يغدو أفضل حالًا أثناء تواجدها، لم يعرف هل اعتادها أم أنّها تعجبُه حقًّا؟!

نوريّة كانت قادرةً على اختراق ذلك السّياج بصحبة أبنائها، محافظة على روابطها مع الحاجّة، تمامًا كما تخترق تلك الذكريات مساحة تفكيره لتنير ذاكرته، ليحتمل ما تبقّى لديه من سنوات العتمة والغربة عن بلاده، في ظلّ متابعته لطريقه الذي سلكه ليحصل على الشّهادة العلميّة،

متخصّصًا في علوم الذّاكرة الّتي جعلها هدف دراسته؛ لأنّه يفتقد جزءًا أساسيًّا منها، فيعود بعدها إلى بلاده ليفتتحَ مركزًا طبيًّا كما هو حلمُ أبيه، وهو يحاول أن يحقّق أحلامَ مَن يحب، ولأنّه كان يومًا جزءًا مهمًّا من هذه الأحلام في حياة مَن يحبّ، يسعى وراءها. خياره أن يدرس في بلد أجنبيّ لم يكن ناشئًا من فراغ، فهو مطّلع على الكثير من علومهم وحضاراتهم، وشغوف بما وصل إليه العالَم الغربي مِن تقدّم، بينما مازال النّصف الآخر من الأرض- الشّرق- يرقد في ظلام، كان يشعرُ أنّ هذا الظلام يشبه ذاكرةَ الماضي لديه، والتي على الرغم من بياضها إلّا أنّها مطموسة بهذا البياض تمامًا، بما يشبه عتامةَ الأرض في شقّها الضّعيف والمندحر، وذلك لصالح الشق الآخرِ منها، والذي يشبهُ ذاكرة المستقبل لديه، تلك الذاكرة التي تزداد اتّساعًا وألقًا وشغفًا، فهل يمكنُ لها أنْ تقود صاحبها دونَ حاجة لذرّة من ذكرى سابقة؟ وهل يمكن للجزء المتحضّر من الأرض أن يستغني عن نصفه الآخر؟

ظلّت الأفكار تتكدّس وتتصارع في عقله مرّة تلو مرّة، مورثة إيّاه نزقًا وعتامة استولتْ على مزاجه ذلك المساء، لم يفعلْ شيئًا بعد عودتِه إلى شقّته سوى أنّه أعدّ لنفسه كوبًا من القهوة الكلاسيكية وجلس أمام النّافذة يراقبُ أضواء الشّوارع، كان الجوُّ متقلّبًا في الخارج، بدأ مطر الشّتاء يتراشق على أوراق الشجر والأرصفة، يصدر طقطقة قوية إثر ارتطام القطرات بسطوح المعدن والصفيح الصقيلة، ينسابُ من

بين فرزاتها كخيطٍ حريري متّصل، وهكذا تراشقت الأفكارُ منهمرة على مخيّلته، محدثةً ارتطامًا قويًّا بمشاعرَ مختلطة لديه، كما يختلط تراب الأرض خارجًا مكوّنًا خليطًا لزِجًا تغوصُ فيه الأقدام، تتأرجح الأغصان متمايلة في الهواء خارجًا، كتأرجح فتيل الذكرى في عقله، وتتمايل الظِّلال الرّاقصة للشّبّان على زجاج نوافذ الحانات في حلقات الرّقص الصّاخبة، فلا يتوقّف ضجيجها، إنّها مدينةٌ صاخبة لا تتوقّف فيها حلقات الرقص المجنونة؛كهذيان ينتشر ويسيطرُ على الجميع في المساء، مدينة صاخبة بما لا يماثل ذلك الصخب الذي تمنّاه أبوه يومًا حين سمّاه عجاجًا.

على مقاعدِ الدّراسة في١٩٩٢

المدينةُ الصّاخبة ليلًا يستحِلّها صخبٌ من نوع آخر نهارًا، ذاك الذي يصنع الحياة ويعلي قيمة العملِ والنّجاح، في قاعة المحاضرة في الجامعة؛ حيث يشرح المحاضرُ ما ذهب إليه الفارابي في نظريّته السيكولوجية حول الخيال أو قوّة العقل، قائلًا: «إنْ لم نجد في مؤلّفات الفارابي حيّزًا خاصًّا بالمخيّلة؛ فإنّه قد أتى في شرحِه للظواهر الذهنيّة على تحليل مفصّل لها، فصارت متداخلة بكثافة مع عدّة مفاهيم وأفكار، فالفارابي لا يفصِل في أغلب نصوصه بين الخيال والتصور البيولوجي والسّيكولوجي للإنسان، ويرى أنّ المخيّلة ظاهرة محاذية للماديّة».. «إنّه شيء يبعث على الزّهو أن ترى صرحًا علميًّا غربيًا مازال يدرّس نظريّات علميّة وضعها علماءُ عرب ومسلمون، حتّى في اللّحظات الأكثر إقصائيّة وتصنيفًا لهُم في العالم!» هذا ما دارَ بخلد عجّاج في تلك اللّحظة، فعلى الرّغم من تطوّر العالم المتحضّر إلّا أنّه مازال يحتاج لذاكرة الماضي، وأقوال مَن سبقوا مِن العلماء، وللمصادفة كان الفارابي صاحبَ النّظريّات مِن الجزء الآخر للأرض- شرقي- لكنّه في تلك الأيام يمثّل الجانب المتحضّرَ والأكثر أهمية، تساءل عجّاج في نفسه:

«هل يمكن أن تلعب الذّاكرة بما فيها من مخيّلة دورًا مهمًّا في قابل الأيّام؟

قاطع أحدُ الطلاب المعروفين بنزعتهم الوجودية معلّقًا: «لكن العقل بالنسبة للنّظرية هو تلك الفطرة السليمة التي غُرست وأُودعت في مخيلتنا الكونيّة».

ليعلّق طالبٌ آخر من السّنة الرابعة مضيفًا: «برأيي تلك المخيّلة التي تنشأ بفعل اكتساب الخبرات والتجارب في هذه الحياة هي مخيّلة صناعيّة، فالإنسانُ مخلوق متعلّم خاضع للتّطوّر والتقدّم، وتتّسع لديه هذه الذّاكرة والمخيّلة باتّساع المعارف».

يعودُ سام؛ الطالب الوجوديّ ليعقّب: «هذا يثبت ما هو مشترك لدى البشريّة بخصوص تلك المخيّلة الجمعيّة لمجتمع بعينه، وحتّى للإنسانية جمعاء، فهو ذلك الحدّ الأدنى المشترك فقط، وهذا ما توصّل له الباحثون الحديثون على ضوء الفرضيّات العلميّة الحديثة».

يشارك عجّاج كغيره من الطلّاب، لكنّه حين يتحدّث ينقصه ذلك الحماس، فيبدو متردّدًا، قال معلّقًا على طرح المحاضر، ومحاولًا أن يشرحَ وجهة نظره الّتي توصّل إليها من خلال بحثه عن الذّاكرة:

«قد تختلط مبدئيًّا هذه المفاهيم، فينبغي أخْذها بحذرٍ شديد، المخيلة تمرّ في جزء من رحلتها عبرَ الذاكرة، لكنّها تتجاوزها بكثيرٍ مكمّلة

مسارَها بعيدًا عن ما يحدث بصورة فعليّة بين ثنيّات العقل، فالمخيّلة تصنع نمطًا مختلفًا لا علاقة له بالحقيقة».

يعلّق المحاضر: «هل تقصدُ أنّها تستند إلى القدرات الواقعية البشرية في اختلاق وتكوين عالم آخر معاشٍ، مستند على بعض التقاطاتِ الحواسّ للأشياء المدركة والمحسوسة في هذا الكون؟ أعتقد أنّ هذه النقطة ستحتاج لمساحة أكبر لنقدّم الدليل عليها.

تنتهي المحاضرة، ويبقى الطلّاب مستقرّين على ذات المقاعد الخشبيّة، في قاعة واسعة يتسلل النّور عبْرها من خلال ثلاثِ شُرفات يتوزّعن على امتداد جدارها من جهة الغرب، يزيد هذا في مساحة الإضاءة المنعكسة على جدرانها اللّامعة فيبعث راحةً تساعد في تهيئة جوٍّ مناسب للحوارات، وتفتح بابَ النّقاش بين الطلّاب. يوضّح بيتر وهوَ من الطلّاب المتفوقين من أصول أفريقية أريتيرية، وهذا واضح في لوْن بشرته الأسمر، وقوامه الضخم، وصوته الذي يبدو خارجًا من مكبّر صوتيّ قائلًا: «الدراسات تبيّن أنّ ما نسبته تسعون بالمائة من النّسيان فيما يتعلق بالذّاكرة ينتجُ بسبب مشكلة في طريقة الاستذكار، وذات النّسبة السابقة تقريبًا ممّا نسمعه من معلومات يتبخّر من الذاكرة بعد أربعة عشر يومًا من سماعه، وما يقاربها ممّا نقرأ دونَ عزمٍ على التّذكر يختفي بعد حوالي شهرٍ من القراءة».

يقاطع سمير، وهو طالب من أصول عربية، بملامح سمراء وإنجليزيتِه متأثّرة بلَكْنته، يعلّق بسخرية:»بهذا لن يتبقّى لنا شيء لنتذكّره!»

يعقّب رانـدي بملامحه النّحيلة، ووجهه الثّعلبي، وعينيه اللّامعتين، وهو طالب في السّنة الرابعة، ويعمل على مشروع التخرّج خاصّته:»لا يهمّني شيء سوى تذكّر اسم شارلوت- مُشيرًا لصديقته الشّقراء، التي تجلس بجواره-» لتقوم بدورها بنكْزِه في كتفه معلّقة: «سيكون النّسيان جيدًا إن مَنَحني فرصةً لأنسى وجهَ الدكتور جيفري ومادّته التّالية!» يقهقه الطّلّاب جميعًا، ويسود الصمت. تعقّب ساشا، وهي طالبةٌ في السنة الثالثة: «ربّما أنّ النسيان هنا متعلّق بما هو أكثر من هذه التّفاصيل اليوميّة الصّغيرة يا رفاق، فالذّاكرة البشريّة عبارة عن مجموعة ارتباطات تشكلت بين مثيراتٍ واستجابات معيّنة، حيث تزداد هذه الارتباطات عددًا وتعقيدًا نتيجة لتفاعل الأفراد المستمرّ مع البيئة التي يعيشون فيها».

راندي بدعابة ومرح: «دعونا من تعريفات العلماء هذه، واتركونا لتفاصيلنا الصّغيرة يا رفاق». يعقّب عجّاج على الرغم من اضطرابه الدّاخلي: أعتقد أنّه ليس هناك انفصالٌ بين الذّاكرة والتّفاصيل الصغيرة، مثل تذكّر أعزّ شخص عندك، الشّراب المفضل لديك، أفضل نوع فاكهة تحبّه، وأفضل لوْن لديك؟» صمتَ برهة وسط إنصاتِ

زملائه الطلبة، ثمّ أردف بهدوء: «سوف تجدُ إجاباتك عن هذه الأسئلة مطبوعةً بشكل صورٍ في ذاكرتك؛ لأنّك ستتذكّر صورة أعزّ شخص، وشكله، وليس شيئًا آخر، كما أنّك ستتذكر صورة شرابك المفضّل، وستتذكر الفاكهةَ واللون المفضّل لك على شكل صورة!». يصمتُ مجدّدًا وأمارات الإنصات بادية على وجوه رفاقه، يعودُ فيضيف بصوتٍ مُنخفض يشوبه الأسى: «لكنّ المشكلة تكمن حين لا تتمكّن من إدراكِ وتذكّرِ تلك التفاصيل الصّغيرة!» بدا واضحًا على بيتر وساشا تفاعلَهما مع الكلمات لكنّ الآخرين لم يفهموا أنّ تلك العبارات تخفي خلفَها فيضًا من مشاعر.

مشاعر

كانت لذيذةً ذكرى الرّسالة الأولى التي تلقّاها ممْهورة بتوقيع فتاةٍ مُعجبة، وبداخلها كلمات ملهبة للشّوق، الحبّ والغرام في قلب مراهقة، وكما تلك المشاعر التي ظنّ أنّه يحملها يومًا لهند، رفيقة طفولته، بيد أنّها لم تكن بلذّة شعوره الذي يتملكه ناحية ساشا- تلك الفتاة ذات الأصول الإسكندنافية-، والتي يبدو أنّها تبادله نفسَ الإعجاب، شقراء بعيون فيروزية، شعرَ أنّ دماءه العربيّة تأبى إلّا الإفصاح عن نفسها فلطالما شكّل الجمال بمقاييس معيّنة عجينة تختلط بخلايا عقلية الشّرقي العربي.. شقراء مُمْتلئة بعيون فيروزية.. ثلاثية لا تجتمع إلّا في الفاتنات. ترافق معها لأكثرَ من مرّة لاحتساء القهوة في كافتيريا الجامعة مع راندي، شارلوت، سمير، بيتر؛ وزملاء آخرون.. كانا يسترقان النّظرَ من وسط الجمع، وفي بعض الأحيان يجدها تنكزه في قدمه من تحت الطّاولة فتحمرّ وجنتاه خجلًا، وكم تمنّى أن يملك نفسه وانفعالاته! تضحك ساشا مفترّة عن أسنان لؤلؤية، وتقاسيم فاتنة، يتلاشى في تفاصيلها، ويعتصر قلبه شوقًا، وهو يحاول تخطي تلك الحواجز التي تربّى عليها، فهو يعرف تمامَ المعرفة أنْ لا حدود في عقل الغربيّة في علاقتها بمحْبوبها. أقرّ في سرّه أنّها تستحقّ ذلك، بل وربما أكثر. مرّت عليه أحايينُ كثيرة

خشي فيها أن تملّ منه، فهو لا يغازلها كما يفعل الآخرون مع فتياتهم، قالت مرّة وهي تجالسه في أحد المقاهي على ناصية الشّارع في طريق العودة للمنزل، وكانت تبدو وضيئة، ومليئة بالبراءة تلمعُ عيونها كأنها شطآن بأمواج حريرية: «لقد أخبرت أمّي أنّي أميل نحوك!» نظر نحوها وقد مدّ يده على الطاولة ليحرّك العصا الماصّة في كوبه بعبثيّة وارتباك، اكتفى بالنّظر والصّمت وبدا ممتنًّا، لكنّ ذلك الشّعور لم يدم طويلًا إذْ أردفت ساشا: «قلت لأمّي إنّه لايحتسي الخمر، لا يرتكب المحرّمات، لا يرتاد الحانات، كما أنّه لا يشارك في حفلات الرقص!» فنظرت لي وقالت بدهشة:»ما هذا؟ أنت تصاحبين شابًّا معقّدًا» وحين عرفت أنّك عربيّ نعتتك بالرّجعي...»أنا آسفة!» شعر بوخز في حلقِه، وبدا الأسى واضحًا على ملامحه، شردَ بعيدًا، وبدأت تتصارعه الأفكار، لكنّه صمت كعادته ولم يعرف بما يتحدث. هو يعرف- بحُكم تربيته ونزعته المتديّنة في طفولته- أنّه قد رسم لنفسه مسارًا قبل أن تطأ قدماه هذه البلاد، لكنْ كيف يمكن لشابّ مثله أن يقاوم ما يعترض طريقَه من ملذّات؟ هذا يحتاج لإرادةٍ حديدية، ولوْلا دفءُ يدِ جدّته بين حناياه الذي يذكّره بكلاءة الله له لكان قد تخطّى الحدود كما يفعل الكثيرُ من الشّبان؛ هي دائرة وتدورُ رحاها وتطحن معها أفكارًا ومبادئَ كثيرة من النّقيض إلى النّقيض. باتت مبادئه تتأرجح بين الثبات والسّقوط؛ فكان بحاجةٍ لأن يثبّت الله فؤادَه على الحق، بطريقة أكثر وضوحًا ومادية من شعوره بيَدِ

جدّته الحانية، فكّر بينه وبين نفسه بمقولةِ شمس التبريزي: (لا بدّ أنّ رفيقي موجود في مكان ما على وجه هذه الأرض، فلا يُعقلُ أنّ العالم المحتشدَ بهذا العددِ الهائل من البشر، يخلو من إنسانٍ واحدٍ فقط، وهو الذي أتمنّى لقاءه).

رفيق

خلالَ رحلة العودة من الجامعة، وحالَ فراغه من أوراقه البحثيّة، اعتاد أن يجالس السيّد أبا الحسن، رجلٌ مغربيّ بملامح هادئة، وجبين عريض يزيّنه حاجبان متهدلان، فوق عينين تفصحان عن الكثير، وبُنية تنضحُ بكهولة عفيّة، تعرّف عليه من أمدٍ قريب. كان يشتري الذّرة من عربجي -صاحب عربة- في زاوية الحديقة، ذات المساحات الواسعة الخضراء، والتي تتخلّلها ممرّات مرصوفة بالحجر المصقول، والمقصوص بطريقة غير منتظمة، وعلى جانبي الممرّات تنتشر أشجار الورد المتنوّعة، وقبل أن يجرّ البائع العربة بعد نفاد بضاعتها، ويركنها إلى جواره، يغلقها ويشدّ على عجلاتها جنزيرًا (سلسلة) حديديًّا صدئًا، يُحضر عجّاج آخر حبّتين من الذرة المتبقية وقد غطّاهما بالشطّة الحارّة والملح، يقدّم إحداهما للرّجل بجواره، ويحتفظ بالأخرى لنفسه، يشكره الرّجلُ على الذّرة، ويصرّ على أن يدفع ثمنَها، لكنّه يرفض بحكم عاداته العربيّة.

في ظلّ شجرة السنديان ذاتها، يجلس كالمعتاد يلتهم الذرة ويتبادل الحديث مع مَن صار صديقه الجديد، وقد يعلم هو أو يخمّن في عقله؛

فيرسم قصّة حول تلك الخلفية الثّقافية والبيئة التي جاء منها رجلٌ كأبي الحسن؛ يبدو أميرًا ضلّ طريقه وسط غابة أو صحراء، ليجد نفسه في ولاية أمريكيّة كما في أفلام السينما، خطرَ لعقله احتمالية أن يكون أبو الحسن أحدَ الرجال الأثرياء؛ أو أحدَ أبناء السّلالات العريقة التي فقدت ثرواتها مؤخّرًا، لا بدّ أنّه أميرٌ متستّر، لم يساوره شك في ذلك.

قاطع أبو الحسن شرودَه بذكاء وفراسة، وهو يمضُغ حبات الذّرة بشهيّة قائلًا: «يبدو أنّك تفكر في أمرٍ مهمّ يشغلك عمّن حولك!» ظلّ قابعًا في حيرته يحمل حبّة الذرة في كفّه، ويتطلّع ببصره نحو قرص الشّمس الذي يتستّر خلف أوراق السنديان، فيجيب: «بل أنا تائهٌ وشارد فيمَن حولي أبحث عن طريق!» أجابه الرجل مفترضًا أنّه قرأ بعض أفكاره:»لا تشغل بالك في هيئتي ورثاثتي وفصلي وأصلي، إنّما أنا شخصٌ لم ينجحْ في تغيير عالمه وإصلاحه، وها هو يحاول إصلاح نفسه.. أومأ ثمّ ثنّى: هذا.. وفقط».

عجّاج: «إنّه ما أبحث عنه تمامًا، فهل يستطيع المرءُ أن يقود رغبة الإصلاح في نفسه؟ وإنْ فعل فكمْ عددُ هؤلاء المصلحين في هذا العالم؟»

ردّ أبو الحسن: «أتعلم.. إنّ مَن لديهم رغبة الإصلاح والتغيير لا يتجاوزون أصابعَ اليد فيمَن هُم حولنا».

صمتَ وأطرق برأسِه كمَن يبحث عن إجابته بين ذرّات التراب.

سأله الرجل: «ألا تعرف قصّة الرّسام الذي أراد أن يتحدّى النّاس بلوحته؟»

حرّك السؤال لديه خاطرًا، فأراد أن يعرف المزيد، لكنّه لم يستطعْ أن يعبّر عن ذلك بلسانه فقد اعتادَ على الصّمت طويلًا، فاكتفى بنظراتٍ تطالب بالحكاية.

تابع الرجل ما بدأه: «تذْكُر الحكاية أنّ فنّانًا رسم لوحته ووضعها في مكان يراها فيه معظمُ النّاس في بلدته، وكتب فوق لوحته مَن رأى خللًا ولو بسيطًا فليضعْ خطًّا تحته. وترك اللوحة وانصرف، وحين عاد في المساء وجدَ اللّوحة قد فقدت معالَمها بفعل الخطوط، وبذلك فقدت اللوحة قيمتَها، وعند ذلك قرّر أن يترك الرّسم فعادَ إلى معلّمه مُحبطًا يجرّ أذيال خيبته. قاطعه عجاج كمَن وضع يدَه على جرح استيائه وخيبته: «إذًا لم تفلح فكرتُه؟»مدّ أبو الحسن ساقه ليمنح نفسه وضعيّة جلوس مريحة تساعده على انشراح الخاطر، وتدفّق الكلمات، ثمّ أجاب: «لقد فعل ذلك، لكنّ معلّمه دلّه على طريق أخرى».

عجّاج: «وهل كان هناك طريق أخرى؟»

دائمًا هناك طريقٌ أخرى، طريق يأخذك باتّجاه آخر، لقد أخبره فقط بأنْ يعاود رسم ذات اللوحة ويغيّر العبارة فوقها ويضع بدلًا منها (مَن رأى أيّ خلل في اللوحة فليصْلِحه) ووضع الريشة والقلم بجانب لوحته.

«وماذا حصل بعد ذلك؟»

«ما حصل كان موجعًا، لم يقترب أحدٌ من الّلوحة حتّى المساء، وتركوها كما هي، ومرّ عليها أيّام ولم يقترب منها أحد».. تململ عجّاج، حكّ رأسه، ثمّ تساءل: «في الحقيقة أنا لا أعرف! لو كنتُ واحدًا ممّن مرّوا على ذات اللوحة ماذا كنت سأفعل؟»

ردّ الرجل: «هذا هو المحكّ! فالمصلحون الحقيقيّون قليلون؛ بل هُم نادرون كالعملة الصعبة».

نالتْ منه علاماتُ الدّهشة والحيرة: «ألم يعرف التاريخ رجالًا مُصلحين؟»

بحثَ أبو الحسن حتّى وجد ليدِه متّكئًا خلفه مُمسكًا باليد الأخرى عصًا خشبية عابثًا ببعض الحصى المتناثرة فوق التراب والعشب، ثمّ ثنّى: «المصلحون موجودون، ولكنّهم قليلون. لقد عرَفت الحضارات البشرية الكثيرَ منهم عبر تاريخها، ولكنّ أرْوعهم وأنبلهم هو محمّد بن عبد الله».

تنفّس عجّاج الصعداء، وقال: «ولكنْ كيف استطاع نبيّنا الكريم أن يقودَ ذلك التغيير والإصلاح في النّاس مِن حوله على الرغم من قسوة المجتمع وتخلّفه حينها؟» استنهض الرجل همّته، وبدأت قريحتُه تنظّم الكلمات مِن معجم تاريخيّ يزخر بالمعاني حين قال:»لقد ربّى

نبيُّنا الكريم النّفوس قبلَ الأجساد، وأطلق تلك الطّاقة والقدرة على التغيير داخل النفس، ويكفيك لكي تعرف ذلك أن تقرأ الحديثَ الشريف (مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان). صمتَ بعدها وسادَ هدوءٌ غريب، فقد خُيّل له أنّها المرة الأولى التي ينتبه فيها لمعنى الحديث، ربّما أنّ الاعتياد على الأقوال والأفعال قد أفقدنا التمتع بمعانيها! لقد أفلح الرّجل في حفر أخدودٍ جديد ليتدفّق منه ماء المعرفة، فيروي ما تحجّر من عقله ومشاعره عبر سنوات عمره القصيرة، سيشكّل هذا جزءًا من ذاكرته التي يتمسك بأطلالها، ذاكرة شابّ تربّى على ما اعتاد عليه.. أوامر ونواهٍ لم يبحث وراءها يومًا بيْدَ أنّه مازال متشبثًا بتلك الذّكرى من المحبة والدفء، التي غمرت قلبه، وشعر بها تحيطه مذْ كان صغيرًا، شيء لم يستطع أنْ يشرحه أو يحكيه حتّى لجدّته أو أعزّ أصدقائه، مشاعرُ تُعاش ولا تُحكَى وقد طواها النّسيان في ذاكرته، لكنّ ما يعينه على استرجاعها عاطفةٌ صادقة وفطرية سكنَتْه حينها، وليتمكّن من التّغلب على بياض ذاكرته كان لا بدّ لقلبه أن يوقّع على تلك الذكريات فيكون له نصيبٌ منها.

ها هو يستردّ عافيته ويعود يشعرُ بذلك الثّبات في فؤاده مجددًا، ولكن هذه المرّة بكلمات أبي الحسن ممّا يؤكد له أنّه يألفه، ولا يفتأ يشعرُ أنّ وجهه كان رفيقًا له يومًا ما، ولكن أين؟ لم يزر المغرب، ولم يتغرّب

عن بلاده سوى للدّراسة! أين يمكن له أنْ يجتمع به؟ لا بدّ أنّها هواجس رجلٍ تبعد به الأيّام والذكريات عن أحبته، وإن كان يظنّ أنّه التقى به يومًا، فكيف يمكن لرجلٍ مثل أبي الحسن أنْ تخونه ذاكرته؟ ولكنّه تذكّر أنّ رجلًا في مثل عُمر أبي الحسن معرّض للنّسيان، إنّه جزءٌ من الهرم في الذاكرة تبعًا للعمر. عاد وتساءل في نفسه:»آه ذلك النسيان.. هل هو نعمة أم نقمة؟» لكنّه لا يرغب أنْ يبني أوهامًا في عقله تقودُه للهذيان، عاد يسأل نفسه مجددًا: «هل سيعاني حين يبلغ سنّ الكُهولة من المزيد من أعراض الذاكرة البيضاء؟ كيف يمكن له أن يتدارك نفسَه قبل فوات الأوان؟»

بدا يتهجّى خيوطَ شمس تشرق في الأفق، فينحني ظهر الذّكريات في ذاكرته وينوء بحمله، فيرقد في فيئ الأمل، ويطوي على خوفه وضعفه خاويًا من لهفة، لتشرق شمس أفكاره ممتطيةً صهوة الحلم من جديد، تفتّش عن معاقد الأمل، تقصّ أثر الذكرى وتشتمّ رائحتها عبر المسافات والزمن.

التدريبات

شعرَ بأحلامه تطارده كذكرى جامحة تحثّه على أنْ يقصّ أثرها عبر الزمن، أراد أن يحافظ على ما تبقّى منها فاتّخذ قراره في الخضوع للجانب العملي من البحث- تمرينات الذاكرة-، وها هو في الفترة الأخيرة منها خاضعٌ للتمرينات، يشرف عليه الدكتور رمزي؛ المسئول الأول عن الأبحاث والمختبرات، والمشرف الخاصّ على بحث الذاكرة الصّفرية المتعلق به.

في كافتيريا الجامعة تنبعث روائحُ الطعام في الأجواء المحيطة، منها ما يفتح الشهيّة، ومنها ما يبعثُ على الغثيان، جلس مع بيتر إلى طاولةٍ في الزاوية اليمنى يتناولان وجبة الغداء، وكان الطبق الرّئيسي لهذا اليوم هو تشكيلة من الخضار بالصّوص المكسيكي والتوابل الحارة وشريحة من لحم العجل المقدّد، كانت جلستهما مطلّة على مبنى المختبرات والأبحاث الأقرب للكافتيريا، تساءل عجّاج متهكّمًا في سرّه: «كيف لهم أنْ يضعوا مبنى الطعام قريبًا من مبنى المختبر؟ أين كان عقلُ المصمم غائبًا؟ أتُراه كان جائعًا في حينها؟» هزّ رأسه يمنة ويسرة في حركة عشوائية أمّا رفيقه فبدا غارقًا في تناول طبقه، أراد عجّاج أن يطلب منه مرافقته لجلسة من تدريبات الذاكرة في المختبر.

قطع شروده صوتُ بيتر متحدّثًا:

«لا يزال مذاقُ الصلصة الحارقة في طبق الخضار عالقًا في فمي، وكوبان من الصودا المثلّجة لم يُفْلحا في إزالة تلك النّيران التي اشتعلتْ في جوفي، أشعرُ بنفسي تنينًا يا صديقي، انظرْ لأُذنيّ» وأشار بيده.

ندّت عن عجّاج ابتسامةٌ خفيفة: »أين؟ لا أرى أثرًا، وعمومًا أعتقد أنّ هذا يناسبك تمامًا، لا ينقصُك سوى أن تتقمّص دور التنين في أعياد الهالوين»

بيتر وقد تخيّل نفسَه تنّينًا فصار ينفثُ في الهواء مصدِرًا صوتَ فحيح «هووهووو»، تنحنح ثمّ أردف: «باعتقادك ما الشّخصية التي تناسبك أنت أيّها الرفيق؟»

فكّر وهو ينظر في الفراغ: «أنا؟ إممم.. لا أعرف! إنّما أنت كيف تراني؟»

بيتر: «أراك علاء الدين، شخصيّة أسطوريّة معروفة»

عجاج متهكّمًا: «علاء الدين؟ على هذا ينبغي لي أن أبحث عن ياسمينة.. هل تعرفها؟

بيتر بدعابة: «ياسمينة أم ساشا؟ (قهقه) أمّ الأربعين حرامي؟»

عجّاج يُعقّب ببرود: «لديك معرفة قويّة بتراثنا!»

بيتر يغمز لرفيقه ويبتسم، فتبدو أسنانُه بيضاء ناصعة من خلال بشرة لامعة بلون الفحم، فكأنه تمثالٌ من الشمع:

«إنّها معرفةٌ بالكتب وبالقلوب.. أليست جيدة؟» ثمّ صمت برهة وأردف: «لا تبالِ كثيرًا يا صاح؛ إنّها قصّة معروفة لدينا جميعًا (قهقه بمكر، ثمّ أضاف بصوت بطيء): «بالطبع أقصد قصة علاء الدين في عالم والت ديزني».

تذكّر عجّاج فصاحَ بصديقه: «تبًّا لك يا بيتر! لقد أهدرت وقتنا بدعاباتك وتكهناتك، وتبًّا لذاكرتي! كنت أريد أنْ أسألك سؤالًا مهمًّا، ولكنّي نسيت، يبدو أنّ دودة النسيان في ذاكرتي تقرض كثيرًا هذه الأيام».

بيتر بصوتٍ جادّ: «لا تقلق يا صاحبي فأنتَ لا تعاني من مشكلة في الحفظ كما أعلم، وإنّما مشكلتك.. إمم.. في استدعاء المعلومات وتذكّرها!»

عجّاج: «ياه! كلامك مطابقٌ لتشخيص الدكتور رمزي!»

بيتر مؤكّدًا: «نعم، لقد كنت بصحبتك في إحدى جلساتك التدريبية معه، هل نسيت؟»

عجّاج مُسندًا ظهره نحو مقعده مُشبّكًا يديه: «يبدو ذلك، ألم أقل لك إنّ دودتي تقرض كثيرًا هذه الأيام؟»

بيتر بنبرةٍ هادئة وعيونٍ شاردة محدّقة في الفراغ: «لست وحدك يا صديقي.. صدّقني لست وحدك! لديّ مثيلة لهذه الدودة القارضة في ذاكرتي، قريبًا سأخضع معك للتمرينات».

علا ضحكُهما الصّاخب معًا، وعمّ المكان، نهضا وحمَلَا حقائبهما، وسارا باتجاه مبنى الأبحاث.

في غرفة البحث الخاصّة بالدكتور رمزي تحدّث الدكتور لعجّاج شارحًا آليّة العمل التي ستساعده على تطبيق التّمرينات قائلًا:

«هذه الطّريقة هي الطريقة الفعلية التي يستخدمها العقلُ البشري في التفكير، ربط الكلمات ومعانيها بصور، وربط المعاني المختلفة ببعضها البعض بالفروع، وهي تستخدم فصّي الدماغ الأيمن والأيسر فترفع كفاءة التعلم».

ينهض الدكتور ويرسمُ على اللوح الجانبي بقلم دائرةً تمثّل الفكرة أو الموضوع الرئيسي، ثمّ يرسم منه فروعًا للأفكار الرئيسية المتعلقة بهذا الموضوع، ويكتب على كلّ فرع كلمة واحدة فقط للتعبير».. يعلّل مشيرًا للّوح: «يمكن وضع صورٍ رمزية على كلّ فرع تمثل معناه، وكذلك استخدام الألوان المختلفة».

يتساءل عجّاج رافعًا حاجبيه، مُقطبًا جبينه: «أعاني كثيرًا هذه الأيام في تذكّر موادّ الاختبارات، فأيّ مراحل التّذكر أسهل؟»

يرجع الدكتو ررمزي- صاحب الملامح الهادئة والوجه العريض- متّجهًا نحو المكتب، يجلس ويسندُ ظهره لمقعده، يخلع نظارته، يضعها جانبًا ويقول: «التذكّر أفضل في البدايات (تأثير البداية) والنهايات (تأثير النهاية) حيث أنّ الوسط مشوّش، ومهدور دائمًا»

يداخل بيتر كنوعٍ من المساندة لرفيقه: «وماذا يفعل مَن يرغب أن يتمكن من الحفاظ على المعلومات؟»

يوجّه الدكتور رمزي حديثَه لكليهما:»عليه استبدال الكلمات قدرَ الإمكان بالصور واستخدم الرّموز الخاصّة»

عجّاج كمَن ترقُد على تخوم ذاكرته أكوامٌ من الأسئلة يريد أن يفرغها: «كيف سأتمكن من ضبط كافّة المعلومات وإحصائها على كثرتها؟»

الدكتور رمزي مشيرًا بيده ناحية الصّور: «عليك بتجزئة تلك المعلومات، فالدماغ يتعامل مع الكمّ الصّغير ويخزّنه بفعالية وكفاءة وسهولة، سأقدّم لك بعض التمرينات التي ستنجزها خلال هذا الأسبوع!» لبسَ نظارته وتحرّك باتجاه الكمبيوتر ليعرض بعض الشرائح، ثمّ أردف: «عليك أن تصنعَ ما يشبه الخريطة الذّهنية، فهي الأنسب للتعامل مع الذاكرة لأنّها تحاكي عمل الدماغ البشري، وتناسب قواعدَ عمل الدماغ إذْ أن التعامل مع الصور وتنظيم المعلومات والصور الكليّة والوحدات يحتاج إلى آلية معينة».

خيّم الهدوء، وبدا على عجّاج انفراجةُ أمل بما هو قادم، كان الوقت يدركه فموعدُ محاضرته يوشك أن ينتهي، قدّم شكره وامتنانه للدكتور رمزي، تلاحقت قدماه برأسه عند بوابة المختبرات، ودّع صديقه وسارَ متّجهًا صوب مبنى الكليّة، لدى الباب ألفى ساشا خارجًا، فاستوقفها قائلًا: «لقد فاتتني المحاضرة!»

عقّبت باقتضاب وقد بدتْ في عجلة من أمرها: «لا عليك، لقد كتبتُ كلّ شيء!» وأشارت لدفتر في يدها.

اليوم هو ذكرى مولده، ولكنّه يبدو شاردًا، حتّى ساشا لاحظتْ شروده، لكنّها لم تعِرْه الكثير من الاهتمام، فقد كانتْ مشغولة ومُرتبكة في آنٍ واحد، خرج من المبنى الذي اعتاد أن يرافقها منه عندَ انتهاء المحاضرة، ولكنْ هذه المرّة كان وحيدًا، فقد تعلّلت بمشاغلَ تنتظرها ولم ترافقه للكافتيريا فغيّر وجْهَته. سار في ظلّ المبنى الشاهق للكليّة مارًّا بمعهد اللّغات متخطّيًا قنطرة المكتبة، وقد أخذته الأفكار، تساءل «هل يمكن أن تكون ساشا غاضبةً لأنّه لم يحضر المحاضرة كعادته؟ هل سيبدو أمامها مهمِلًا لتلك الأوقات التي يقضيها معها؟»

أووف! توقّف عن التفكير، وحدّث نفسه، ونظرَ نحو الأعلى، كانت الشّمس كاسفةَ الأشعة، تختبئ بين غيْمات خفيفةٍ وبيضاء مُتناثرة كنُدَف قطنٍ كبيرة في السماء، خرج من حدود الجامعة يطأ العشبَ المزروع

على جنبات الممرّات، واصل السّير جادًّا ليختصر مسافة الطريق، بدت الممرّات المشحّفة بالحجارة كقِلاع مدكوكة مستوية مع الأرض، لم يشعر أثناء مروره بحركة المارّة من حوله، أحسّ نفسه وقد تعرّق كثيرًا، وشعر بالقطرات تنزلق أسفلَ ظهره فتُبلّل ملابسه، عرج على الحديقة ليرتاح قليلًا بجوار السنديانة، فربّما يجدُ رفيقه أبا الحسن جالسًا في موقعه المعتاد في مثل هذا الوقت. يحتاج لرفيق يحدّثه ولكنّه واصَلَ المسير، يكاد حذاؤه ينْقطع، لم يتذكر أن يستبدِلَه بآخرَ فهذا الحذاء كان رفيقًا له على مدى عامين ماضييْن، لقد أحضره معه من بلدته في آخرِ زيارةٍ له للدّيار، تذكّر قصّةً حدثت معه صغيرًا تتعلّق بحذاءٍ اقتناه في طفولته، لكنّه فقده في ذات اليوم، طأطأ رأسَه وطرد شبح أفكار، ثمّ عاد مجددًا ليحدث نفسه:

«آهٍ، كم أبحث عن نفسي فلا أجدها! أحسّ أنّها تنسحب منّي ولا أمتلكها، نفسي، محبوبتي وذاكرتي، وماذا يمتلك مَن ليس له ماضٍ، وحاضرُه لا يشبهه؟ كيف يمكن لبشر من لحم ودمٍ أن ينفصلَ عن واقعه، وأن يترنّح بعيدًا عن هويته؟ كم نقاسي نحن المغتربين عن أوطاننا؟ لا نستطيع التّماسك وفي داخلنا مسخٌ بشري لا يستطيع التّأقلم مع نفسه في المكان، ويعيش متشبثًا بماضٍ، وزمان، وذاكرة مفقودة، ولا أملَ له بمستقبل ومخيلة ينشدها حيث يريد، أيّتها الغيمات الخفيفة كذاكرتي المنسيّة، فلتحملي هلاوسي هذه ولتقذفيها هناك، أعيديها إلى موطنها الذي أتتْ منه، احْمليها إلى وادي السّاكن الذي يشبِهني،

إلى ذلك العالم القديم والذّاكرة المنسيّة، فهناك سيلتئم بعضها ببعضي ويشكلني أنا كلّي».

في طريق عودته للمنزل كانت الشّمس تذوبُ في الأفق، فتحتجبُ عن الأنظار وراء لِثام من الأبراج العالية، يفكّر أنْ يبعث المزيد من الرسائل لوالده يطمئنّ فيها على صحّة جدّته التي تدهورت مؤخّرًا، في آخر رسالة تلقّاها من والده كانت ترقد عاجزةً، وقد هرِمتْ إلى الحدّ الذي لازمتْ فراشها، كم تمنّى لو يستطيع أن يراها لمرّة واحدة! لم يشعر بنفسه إلّا وقد وصل لشقّته، أدارَ المفتاح وشعَرَ بشيء غريب، يبدو أنّه نسي أن يقفلَ الباب.. أووه دخل من العتبة وفجأة انهالتْ عليه صيحاتُ الرّفاق، وقِطعٌ من الورود المنثورة في الهواء، ونُدفُ ثلجِ الزّينة تساقطت على رأسه، صخبٌ ومرحٌ وعباراتُ تهنئة وتربيتات حميمة وأحضانٌ وصفير كإيقاع موسيقى، في عينيه خليطٌ من فرح ودهشة ودموع:

«يا إلهي.. ما هذا؟ لقد فاجأتموني حقًّا! متى فعلتموها؟ وكيف؟ تلعثم وجلس بينهم قرب المنضدة المعدّة والمجهّزة بأصناف الحلويات والمخبوزات، نهضت ساشا ومعها شارلوت، صفّق الجميع وطفقتَا تشرحان ترتيبات الحفل:

تقدّمت ساشا وتحدّثت بمرح انْعكس على وجهها فتورّد خدّاها قائلة: «على الرغم من أنّي أثرثر كثيرًا، لكنّي تمكّنت من نفسي ولم أخبرْك

بشيء حين الْتَقيتك عند باب المحاضرة» أشارت لعجّاج، وتابعت: »أخذ راندي مفتاح المنزل منّي، وسَبَقنا إلى الشقّة لينقل الطاولة ويحرك قطع الأثاث» أليس كذلك راندي؟»

بدا راندي مرتبكًا، خجولًا ومطأطئًا.

صاحَ فيه سمير مداعبًا: «أوّه.. لا تخجل يا صاح! هذا عمل بسيط».

زمّ راندي شفتيه وحدّق بعينيه الصغيرتين كعيني هرّ، مفترًّا عن ابتسامة مجاملة ثمّ تنحنح: «لا بأس».

استمرّت الفتاتان تتناوبان على وصفِ الترتيبات حتّى وصلتا في شرحهما لقائمة الأطعمة، قالت ساشا: «قالب من التّشيز كيك اللّذيذ أحضره بيتر، فطيرة التفاح بالقرفة من صنع أمّي، هذا القالب الكبير من التّارت من الثّري سمير، تشكيلة المخبوزات والبيتزا تقاسمها بيتر وسام، الصّودا والمشروبات على نفقة العزيزة شارلوت يشاركها راندي- أشارت ساشا- أمّا هذا الشرشف الرّائع والمطرز الذي يغطي الطاولة فهو منّي».. صمتتْ وأضافت بخجل: «مِن تراثنا الإسكندنافي!»

أنهتْ حديثها بتحيّة للجميع بانحناءةٍ خاصّة بدا معها تصميمُ ثوبها الأنيق من قماش التافتا الحريري؛ بأكمامه القصيرة وأزرارٍ لؤلؤية بارزة أسفل الرقبة، يحيطها التّطريز اليدوي المتقن نزولًا عند فتحة الصدر، وتسريحة شَعْرها الرّقيقة والبسيطة كأميرة حقًّا، أمّا شارلوت

فقد ارتدتْ قميصًا من الكريب النّاعم بلونٍ وردي، وبنطالًا أبيضَ عريضًا، ورفعَتْ خصلًا من شعرها الكستنائي من الجانبين، وتركت الوسط حرًّا.. بدتْ فاتنة. كان راندي وبيتر يرتديان قميصين رسميين بياقة عالية وأكمام بأزرار بارزة، وارتدى سمير قميصًا وبنطالًا من الجينز الخالص، لم يكن لعجّاج متّسع من الوقت ليغيّر ثيابه التي لبسها طوال اليوم في الجامعة، صفّق الجميع وتبادلوا التحيّات وقدموا التهاني لعجّاج بيوم مولده، كان المشهدُ رائعًا، شعر بالامتنان تجاه رفاقه حيث جلس بين بيتر وسمير، تطلّع بمزيجٍ من مشاعر الابتهاج والوداد، أوقف الجميع صخبهم إثر سماعهم قرعًا على الباب، أطلّ أبو الحسن يحمل باقةً من أزهار القرنفل فوّاحة الرّائحة، يرتدي قفطانًا مغربيًّا جميلًا بتقليمات عريضة؛ لم يكنْ ليفوّت يومًا كهذا يمرّ دون لفتةٍ منه، نهض عجّاج مرحّبًا:

«تفضّل يا صديقي! هؤلاء رفاقي».. وأشار لهم، ثمّ أردف: «وهذا أبو الحسن صديقي العربي، وأبي الرّوحي». أفسح له مكانًا. تناولت ساشا الأزهارَ، ووضعتها في ركن جانبي، نهض الجميع وبدأوا بتقطيع الكعكة. في نهاية السّهرة التي انفضّت قبيل الفجر، وقبل أن تتبدل خيوط الظّلام إلى النّور كان آخر المتواجدين السيّد أبا الحسن، تبادلا الحديث في محاولةٍ لتجاذب الفكر بين العتمة والنّور، نهض عجّاج وقام بفتح النّافذة ليجدّد الهواء في الغرفة، فانسلّ شعاع

القمر البدري لينعكس على الجدران، جلس قُبالة صديقه فمنذُ فترة يشعرُ بنفسه متأرجحًا ومرتبكًا وتأكل رأسه أفكارٌ كثيرة، ذاكرته المفقودة، محبوبته التي يخشى أن يفقدها، ورفيقه الذي لا يعرف عنه شيئًا، لحظات بيضاء كبياض القمر في تلك الليلة، فبدا انشراح الفكر لكلا الرفيقين متعرضًا لنور الحقيقة المنسلّ عبر النّافذة، وكأنّه قادم من عالم علويّ ليتلبّس الكلمات، فتقوم من منشرها على لسان أبي الحسن الذي لاحظ شرودَ عجّاج وارتباكه، ومزيجَ الحيرة الذي يغطي ملامحه فقال:

«اسمعني جيدًا وركّز في كلماتي.. أنت تجهد نفسك».

قاطعه مستفهمًا: «ولكنّ الحيرة تضرب بكلّ المسلّمات لديّ، وهذا يقودني لمزيد منها» يسند أبو الحسن ظهرَه لمقعده، ويضع رجْلًا على رجْلٍ يرخي رأسه بين كفّيه، ويتحدث: «أن أقدّم لك إجابات ممكنة على أسئلتك فهذا ضربٌ من اللامعقول، فإمّا أن تعتزل ذلك لراحةِ نفسك وإمّا أن تبقى على ارتيابك»

عجّاج مطرقًا برأسه: «ولكنّي لا أتأوّل المعرفة، وليس بمقدوري أن أفكّ اللّبس الذي يعتريني حين تفكّري بكلّ ما هو حولي، هذا فوق إمكاني! كيف لي أن أهتدي إلى الحقيقة بما يشبهها؟ وفيما أعلمُ فالمعرفةُ لا تبتدئ بسالفة لها؛ بل تتهيأ بما يدلّ عليها بذاتها!»

«قد يوضّح لي هذا أنّ ما تحتاجه منّي إنّما هو إيضاح وتبْيين.. وربّما أنّك تنقض حجّتي لتحصل على ما تريد، ولو أنّك أبقيت على معرفتك الأولى ستحافظ على الخيط موصولًا بها»

عجّاج واضعًا يديه خلفه، يتّكئ عليهما ويركّز نظره باتجاه الأشعة المنسلّة من النّافذة ويتحدّث موضّحًا: «إنّي حين أتأمّل ذاتي تملؤني أوهامي فلا تترك لي متنفّسًا من يقين، وهذا يسقطني في ريْبي! أليس كلّ ما يستعصي على الفهم مُحتاجًا لإيضاح؟ إنّ ما أحاطني من غموض أوقعني في حرَجِ السؤال فتعيّن عليّ إيجاد الإجابة!»

بقليلٍ من هدوء يمسح أبو الحسن ذقنَه بكفّه قائلًا: «لا يُعقل أن تضع كلّ معارفك في دائرة اللّايقين والشك يا صاحبي؛ فإنّما الحقيقة قائمةٌ في عقلك وواقعك سواءٌ أأدركت ذلك أم غلبك التّخيّل، أليست قاب قوسين أو أدنى منك؟ ثمّ إنّي لا أملك لك إلّا الإرشاد، أمّا التوفيق فمن الله».

نهضَ عجّاج باتّجاه النّافذة، أسند ظهره للحائط، تنهّد وأخذَ نفسًا عميقًا، نظر بعينين يغمرهما ضياءُ القمر، ثمّ قال: «بتّ أشعر بشيء جديد يُولَدُ في داخلي منذ عرفتك لقد رفعت معرفتي بالحقائق إلى مرتبة تقارب اليقين، ولم يعدْ هناك موجبٌ للكثير من عوائق الطّريق، أشعر أنّ معرفة البدايات توشك أن تورثني يقين النّهايات»

صمتَ برهة وتحرّك باتجاه الطاولة ليعدّ فنجانين من القهوة الإيطالية، ثمّ عاد إلى مكانه بينما يحدّق رفيقه في الفراغ؛ قدّم له القهوة وجلس إلى مقعده، أخذ رشفة من قهوته وعاد لحواره، ثمّ تساءل: «كيف يمكن لنا أنْ نحافظ على طريقٍ ومنهج ثابتٍ في الحياة المتقلّبة؟»

بريقٌ من النّور المنعكس كبقيّة من أملٍ بدا واضحًا على ملامح وتعقيب أبي الحسن، وكأنّه قادم من عالمٍ غيبي قائلًا: «المنهجُ هو طريقة للعيش بتوازنٍ حقيقي، ولا يعيبنا أن نفكّر أن نعيش بهذه الرّؤية المتماشية مع إنسانيتنا والبعيدة عن فكرة الهدم، وأنّنا نحيا لنموت.. تستطيع أن تظلّ خالدًا يا صديقي، بتلك الروح بين جنبيك»

مازالت ذاكرتُه تعجّ بالتساؤلات التي تثقل رأسه، يعقّب:

«ولكن كيف؟ إنّنا عالقون في أجسادنا يسيطر علينا واقعنا، منغمسون في الحاضر، عالقون في الماضي، وتوّاقون للمستقبل!»

يسترسل في حديثه بحماسٍ قائلًا: «القوالب البشرية أو ما تسمّيها الأجساد، تسهّل علينا مهمّتنا، فهي أدواتنا في هذه الحياة، عمومًا كلّ جديد يكون له خصومه، يصمت لبرهة ثمّ يردف: «تبقى الإشكاليّة في الحكم المطلق، وبالجُملة من قِبَل مَن يحكم على مَن يؤمنون بفاعلية ذلك كلّه من جري وراء المعرفة المتناهية والتسامي بهذه الروح دون تفصيل أو استثناء»

«ولكن ماذا بخصوص التّجاوز الكبير الذي قد يُخرجنا عن روحانيتنا بصورة أو بأخرى؟»

«وماذا لو لم نظلّ في ذات الدائرة؟ إنّها ليست قانونًا بل فنونًا، أخذنا منها ما يتناسب معنا وطرحنا ما يذهب بنا بعيدًا نحو عالم ملائكي، على اعتبار بشريّتنا التي علينا أن نقرّ بها، ولا ضير من محاولة تعديل مسارنا وفقَ ما يناسبنا، الماضي، الحاضر، والمستقبلُ جزءٌ من تكويننا، كثيرون مَن يعملون على محاولة دمجهم دون أن يشعروا.

«ولكن مثل ذلك يدخلنا في جدل واسع»

«الحياةُ دائمًا تتّسع للرأي والرأي الآخر، خذْ مثلًا علم النّفس والفلسفة وفنون الحياة والتعايش ومسار حياة الإنسان لا تخضع جميعُها لقوانين علمية صرفة وفقَ القواعد التي وضعها البشر أنفسهم للعلوم الأخرى. (المسار الغربي لاستقراء ودعم القواعد والنظريات العلمية) لتكون من المسلّمات والقوانين العلمية لديهم»

عجّاج في فجوةٍ بين الاستفهام والإقرار مُعقبًا: «يبدو أنّنا لحقنا بركبهم في التعلّق بكلّ ما هو محسوس ملموس ومادي»

يصمُت ثمّ يضيف: «حفلة اليوم مثالٌ على ذلك»

يعدّل أبو الحسن وضعيّة جلوسه، وينحني قليلًا نحو الأمام حاملًا فنجانه متحدّثًا: «نحن-كشرقيّين- مختلفون قليلًا».. يحتسي رشفاتٍ

من قهوته، يصمت متأمّلًا، ثمّ يعود منبّهًا كمن تذكّر شيئًا: «هذا قد يُحسبُ لنا أو علينا، فلدينا تاريخٌ عريض وإرثٌ عظيم من المسلّمات والغيبيّات والروحانيّات، والتي لم نحتجْ لتقديم الدليل العقلي عليها دائمًا، ولكن علينا أن نعود فنسير على طريق المعرفة كما أسلفنا»

«وكيف نفعل ذلك والفجوةُ بالغة الأثر والتأثير؟ أشعر أنّ هذا غير ممكن، فنحن عاجزون عن دمج الماضي بالحاضر؛ لأنّ ذاكرتنا الجمعية لم تفلح في ذلك بعد!»

يفرُك جبينه كمَن يعتصر الأفكار، ويحرّك يديه ممثّلًا كلماته: «حين أقول طريق المعرفة فأنا أقصد ذلك، وما يقودنا لربط الماضي بالمستقبل واستعادة الذّاكرة ودمجها بالمخيّلة هو الكتاب، يتحدّث (بورخيس) في إحدى مقولاته الشّهيرة قائلًا: «إنّ الكتاب هو الأكثر دهشة بين كلّ الأدوات التي اخترعها الإنسان طوالَ تاريخه، إذ إنّ بقيّة الأدوات هي امتداد للجسد، فالميكروسكوب والتلسكوب امتدادٌ لرؤية الإنسان، والهاتف امتدادٌ لسمعه، المحراث والسيف امتدادٌ لذراعه، غير أنّ الكتاب امتدادٌ لشيء آخر، امتداد للذّاكرة والمخيّلة!»

مِن جديد

(العاداتُ والتّقاليد في المكان هي سنن وقوانين يقتضي احترامُها لأنّها تحافظ على فكرة بقاء المكان عامرًا بأهله)

ككتابٍ مطبوع على قلبه، مازال تمسّكه بما ردّدته جدّته على مسامعه، ويجري منه على لسانه، حتّى يتمكّن من الاحتفاظ بتلك المقولة كذكرى مُلهمة، ومنهاجٍ يخطّ له طريقًا في بلدٍ يحلّ ضيفًا عليه، وليسَ له الحقّ في أن يغيّره على هواه. استحضر الشّعور الذي لازمه فترةً من الزمن، وبدا له أنّه مازال تحتَ تأثير ذات الفكرة، وكأنّ شمسَ حياته راكنة لتقيل فوق قمم الجحيم، تستيقظ الأزهار من سباتها على حركة خيوط الشّمس بينما تتوقّف أزهارُ أحلامه تبعًا لتعاقب تلك الخيوط على نافذة حياته. ظنّ أنّه سيتحوّل إلى أسطورة، رجع إلى واقعه وقال مجددًا الهربُ أفضل من الاستسلام والسجن.

«كيف لأحدهم أن يكون حرًّا وفي ذات الوقت مسيّرًا من قِبَل غيره! لا يمتلك إرادة حرّة، إنّهم حتّى لا يستمعون، أفكار وفقط، أفكار وفقط..تبًّا!» هذا ما كان يعتمل في ذاكرته. بات يعاني من ذات الصّمت الملعون الذي أحاط برأسه في تلك الليلة التّي غصّ فيها بحبّات السليق،

ودخل في عالم من اللّون الأبيض المغلّف بالصمت، ليعود بعدها للحياة يحملُ معه ذلك البياض في ذاكرته يُحيطه كسِوار يلفّ روحه وجسده.

«كيف لمثلي أن يفكّر في قتل هذا العدد من النّاس؟»

صوتُ الضّابط يقبع في أُذنه: قد تفعل دونَ أن يرفّ لك جفن! فأنت رجعي! لذا ستموت هنا بين هذه الجدران الأربع إن لم تعترف».. طرد شبحَ أفكاره بعيدًا حتّى يتأكّد من أنّها لا تتكرّر عليه بصورةٍ وسْواسيّة.

في المكتب مازال الضّابط بذات الوجه المتغضّن والوجنتين البارزتين والحمراوين جالسًا خلف مقعده، فاردًا ذراعيه يحتسي قهوته الكلاسيكية بالقرب من إحدى الشرفات المطلّة على مدخل مركز التوقيف، اكتنفته مشاعر من الضيق فهذه القضية شائكة وليست من السهولة بمكان.

في ذات المركز أخرجوا المشتبه بهم الذين كانوا قد استدعوهم للتحقيق من غرفة التوقيف واقتادوهم عبر ممرّ طويل ينتهي بحائط زجاجي، يلفح ضوء الشّمس النّافذ عبره أعين المارين أمامه، لم يستطع أن يرى طريقه، وكاد يتعثّر، لولا أنّ شرطيَّ التوقيف كان ممسكًا بيده.

حين شارف على الوصول هُرع إليه عددٌ من الصّحافيين المملوئين بالفضول، وأنوار كاميراتهم تقذف ضوءها في عينيه مجددًا، ليعود غيرَ قادر على السير، يتراكضون نحوه يطرحون أسئلتهم بنَهَمٍ وفضول:

«من دفعك لهذا العمل؟»

«هل أنت عربي؟»

«هل أنت منفّذ التفجير؟»

«ماذا تعرف عن التنظيمات التّخريبية؟» هل أنت أحد أعضائها؟

«هل أنت الذراع الأيمن للتنظيم؟»»هل أنت؟...هل أنت؟»

إنّه ذلك الفضول الذي قتل القطّ يومًا، لكنّه لم يفلح أن يقتل ذلك السنّور في أحلامه.

راودَه حلمُ السّنّور مجددًا مرّاتٍ ومرّات، كان يصحو من نومه متعرّقًا قلقًا لاهثًا، تحيط هالة رماديّة بأسفل عينيه، منذ فترةٍ وجهه يبدو أقربَ للشحوب، ليس لديه رغبة في الطعام ويشعر بمرارة في حلقه، التماعُ عينيّ السنّور في منامه يذكّره بشيء ما، هناك جزء ناقص في هذا الحلم! لكنّ ذاكرته لا تساعده على التّذكر، آه لو استطاع أن ينبشَ في بياض عقله، ويعرف تتمة ذلك المنام الذي يطارده منذُ صغره! عليه أن يعتصر ذاكرته من جديد.

هيّا فليعمل على ذلك، فلتنفعه بحوثه وليحاول أن يطبّق معرفته على واقعه، ما نفع تلك المعرفة إنْ كانت هذيانًا لا يثمر؟كيف تخطّى معرفته التي تعلمها في صغره حين راوده المنام مجددًا، مرارًا وتكرارًا؟ إنّ بصيرة جدّته ما كانت لتترك شيئًا كهذا يمرّ دون أن تجدَ له تأويلًا!

سحبَه مجموعة من رجال الشّرطة من بين براثنِ الهجوم الصحفي، كرّر برعب «ماذا يحصل؟ لست متّهمًا! أنا شاهد! أين تسحبوني؟ اتركوني أدافع عن نفسي» لكزه الشرطي في كتفه ناهرًا: «اصمت، أنت لست في قاعة المحكمة»

مرّ من أمام أحدهم، وكان يحدّق به طويلًا، وحين التفت نحوه شعرَ أنّه يعرفه، عاد بذاكرته المشوّشة يحاول أنْ يتذكر.. «آه، إنّه المستر هنري».. لم يكد يصدّق عينيه فقد مرّت سنوات على آخر مرّة التقيا فيها، يبدو الرجل وقد كبُر كثيرًا، ازداد نحولًا وتجعّد وجهه، ألقى عليه التحية محاولًا أن يلفتَ نظره، ثمّ سأل الشرطي بجواره:

«لمَ أحضرتُم السيد هنري؟» أجابه الشرطي بحزم: «لا شأن لك».

دخل من الباب مدفوعًا نحو غرفة التحقيق، كان خائفًا وقلقًا، انفلتت منه الكلمات بسرعة وتساءل:

«هذا الرجل- وأشار إلى السيّد هنري الذي دخل مباشرة بعده-: لماذا أحضرتموه؟ لقد كنت ضيفَه في بداية تواجدي في هذه البلاد كطالبٍ مبتعَث»

وجّه الضابط نظرَه صوْبه، عدّل وضعيّة جلوسه ثمّ تحدث:

«لقد تمّ توزيعكم كطلّاب مبتعثين على الأسرِ والعوائل وفق نظام مدْروس، وذلك ريثما تستطيع الجامعة تهيئة السكن»

كغريقٍ تعلّق بقشّة قال:»اسألوه، دعوه يخبركم عنّي«

تحدّث الضّابط: «لقد كانت فرصة لتبادل الثقافات»

ثنّى وربّما محاولةً للاندماج داخل المجتمع بفترةٍ وجيزة.

نظر إليه الشّاهد والذي يجلس على مسافة وحرّك رأسه بالإيجاب.

الضّابط موجّهًا حديثه للشاهد: «هذا الرجل هو أحدُ المشتبه بهم، فهل تعرفه؟»

أجاب بحذر: «تعرّفت به في بداية وجوده في البلدة بحُكم قانون التبادل الثّقافي للجامعات وإسهام الأسر في هذا الجانب كما تعلم»

الضّابط منوّهًا «طلبناك كشاهدٍ في القضية وذلك لأنّك تعرفه، في تلك الفترة الّتي خالطته فيها هل لاحظت شيئًا مريبًا؟»

بدا أنّ السيد هنري يتعرّق، والقلق مرتَسِم على ملامح وجهه، فأجاب باقتضاب:

«معرفتي به كانت قصيرة، لم تتجاوزْ ثلاثة أشهر، لكنّني لم ألحظْ أمرًا مريبًا في سلوكه، لقد كان هادئًا ومتّزنًا»

بصفتِك شاهدًا على الحادث، وبحُكم تواجدك قريبًا من المجمّع التّجاري؛ صف لنا مشاهداتك الأولى لحادث التفجير.

كان الأسى والارتباك يبدو واضحًا في عينيه وهو يتحدّث ويحرّك كلتا يديه ليصف المشهد:

«كنّا.. إمم .. كنّا مجموعة من النّاس.. بعينيّ هاتين رأيتُ آلاف الأشخاص يموتون أمام نواظرنا بصورةٍ مؤثّرة تدعو للغثيان.. كان عليّ لحظتها أن أظلّ متماسكًا حتّى أتمكّن من إدراك الموقف.. للحظاتٍ كدْتُ أفقدُ اتّزاني ووعيي!» ساد صمت، وبدا الانفعالُ واضحًا على الرجل.

لقد كان هناك أشخاصٌ كثرٌ يتراكضون خارج السّوق، سمعت أحدهم يصيح بالآخرين محذّرًا.

لحظات فارقة من الصّمت الخانق تبعت تدوين المحضر وأقوال الشهود، بينما كانت تعصف بهم رياحُ الشعور الممزوج بالخوف والترقّب.

لوس أنجلوس ١٩٩٧

مازالت الريحُ تعصف باعثةً الخوف والترقّب، دافعةً معها غيمات مشبّعة بالأمطار على مساحة واسعة في صباح ذلك اليوم الشتوي من شهر كانون الثاني بمدينة لوس أنجلوس.

يجلس في شقّته في الجادة ستين في الطابق الثّالث، تعصف الأفكار برأسه، يحدّق في النّافذة التي اتّشحت بالضباب، وقطرات المطر المنسابة فوقها، يرسم بأصبعه أشكالًا تحاكي ما يرتسم بعقله من خيالات، رسم صورةً لامرأةٍ عجوز، وبجوارها طفلٌ صغير، وعاد يخطط فوق تلك الملامح أشكالًا غير مفهومة من نقاط وعلاماتٍ متقاطعة، هي ما كان يملأ عقله في تلك اللّحظات.

انقضتْ ثلاثة أشهر على آخر رسالة بريديّة تلقّاها من والده، لم ينقطع عن مراسلته لمثل هذه المدّة، كان يتلقّى منه رسالة كلّ شهر، جاءته رسالةٌ متأخّرة وليست في موعدها، فتحها بلهفة، قرأها وبكى فقدْ كان خبر موت جدته: «آهٍ يا حبيبتي! لقد كنت في داخلي أشعرُ أنّ هناك أمرًا جللًا! صِرتُ أبحث عن حزني في عيون الآخرين، فالمصائب تتداعى عليّ مرّة واحدة»

في ساعة متأخّرةٍ من الليل، صار يقومُ فزعًا من فراشه، يعاود البكاء، وقراءة الرسالة مجدّدًا، يقرأ ما كتب والده:

«لا تحزن يا ولـدي؛ فالموتُ يأتي في موعده دائـمًا، ويجعلنا متساويين أمامه، فلا فروق بيننا، وفيه راحةٌ من هذا الشّقاء، وقد عاشت جدّتُك عمرَها بصبر وعطاء ما نضب أبدًا، فلتذكرها بخير ولتترحّم على روحها»

- آهٍ يا جدّتي، في غربتي هذه نسيت ملامحَ وجهك الجميل، سامحيني يا حبيبتي، ليس بيدي حيلة، فذاكرتي لا تساعدني على حفظ الصّور طويلًا، ستقولين لي إنّ وجهك ليس ككل الوجوه.. نعم فأنتِ ملاكٌ في صورة بشرية، ملاكٌ حارس لطفلٍ بائس منزوع الذكريات، هل تنفع اعتذاراتي في غير أوانها؟ لقد أطلتُ عليكِ الغيابَ، وأنا أعرف أنّ قلبك لا يحتمل بُعدًا، قرأت ذلك في عيونِك عندما تودّعنا للمرّة الأولى! ليتني لم أغادرِ الديّار، ومكثتُ إلى جوارك أسامرك وأتمسّك بطرف ثوبك لتصحبيني معك حيث حللت»

صارَ الحزن يخيّم مثل سحابةٍ مثقلةٍ تنزل بحمولتها فوق رأسه، من سيحدّثه بعدها عن أمّه؟ من يملكُ مساحة الذّكريات الماضية غيرها! من سيلاطفه ويمازحه بذكر هند وزياراتها المتكررة للدار!

«لطالما امتحنت صبرها وحبّها لي، وكان يجدرُ بي أن لا أفعل! لقد انتهت تلك الأيام وكأنّها لم تكنْ أبدًا.

لم يعدْ قادرًا على الخروج إذْ سيطرت عليه مشاعرُ الخوف الممزوجة بالحزن؛ إثر موت جدته، وتوقيعه على تعهّد بالإقامة الجبرية في بيته بعد أحداث التّفجير الأخيرة في المجمع التجاري القريب من منزله، والتي اسْتدعيَ على إثرها للتوقيف والتحقيق معه كأحد المشبوهين في الحادث، عرف في قرارةِ نفسه أنّ قرارًا كهذا قد يكون الحاجزَ الذي سيتوقف عنده أيّ حلم له ببناء مستقبله في هذه البلاد، وربّما في غيرها إنْ ثبتت عليه التّهمة، عليه أن يسعى بنفسه لإثبات عدم تورّطه في ذلك الحادث، هذا إن بقي له متّسع من الوقت ليفعل.

ساعدته معرفتُه بالعمّ أبي الحسن الرّجل المغربي، فلم يكنْ له مَن يسأل عنه في تلك البلاد سواه، فهو مهتمّ لأمره وكأنّه ابنٌ له، ربّما أنّه يذكّره بابنه الذي تركه يومًا في بلاده ولم يره منذ ذلك الحين، تردّد عليه أبو الحسن ولم يكنْ يخشى من الشرطة، وتلك الإقامة الجبرية التي فُرضت على عجّاج، لحين الانْتهاء من التّحقيق معه. كان الرجل مغامرًا وليس في قلبه متسعٌ للخوف، لكنّه يعرف أنّ تهمةً كتلك التي قذفوا بها في وجه الشّاب ستكون نهاية مستقبله، وربّما زجّه أيضًا في غيابات السجون التي لن ترحمه، لتنتزع منه اعترافاتٍ بأشياءٍ لم يقترفها.

لم يدّخر جهدًا في مساعدته، ولن يدّخره، لقد وجّه له النّصيحة قائلًا: «عليك أن تنجو بنفسك، سيلاحقونك ولنْ يهدأوا حتّى تثبت عليك أقاويلهم»

«ولكنّي لم أفعل شيئًا! أُقسِم على ذلك، لا علم لي بتلك التفجيرات، ولست أتذكّر أنّي تورطت يومًا بصحبة أحدِ المشبوهين في الحادثة، أو حتى معرفتهم»

هناك لغزٌ في الموضوع لقد فُصّلَت التّهمة بمقاسك، أنا لا أتّهم العدالة، ولكن يبدو أنّ هناك شيئًا غامضًا»

بدتِ الحيرةُ على قسماتِ عجّاج، فصار يردّد: «لست أضمرُ لأحدهم شرًّا، واختلاطي قليل، لا أرتادُ البارات ولا النوادي الليلية، وجُلّ ما أفعلُه هو أنْ أقضي ساعة من الليل بعد انتهائي من أبحاثي في ظلّ ضوء القمر السّاطع جوار شجرة السّنديان، حيث تعرّفت بك، ربّما سيستدعونك قريبًا! ستحوم حولَك الشّبهات فلا تعدْ لزياراتي فقد يؤذونك!»

بعدم مبالاة: «لستُ ممّن يخشونهم، لقد مررتُ بتجارب كثيرة جعلتني الرّجلَ الذي يقف أمامك، فلا يغرنّك مظهري، فأنا قادرٌ على ما لا تتوقّعه، ولي معارفي واتصالاتي، لا أنكر.. لقد احتوتني بلادهم حين لفظتني بلادي، وهُم يعرفون ماذا يريدون، ليس لديّ شيء ينفعهم، لقد انتهوا مني منذُ عقود».. قهقه ملء فمِه وهو يتجرّع رشفاتٍ متتالية من الصّودا، ثمّ أردف:

«عليك أن تعتصرَ ذاكرتك، أن تتعرّف إلى نفسك مجددًا! ما الأحداث التي حصلت معك مؤخّرًا؟ ومَن قابلت؟ مع أنّي أحسب الموضوع منتهيًا»

أومأ عجّاج برأسه، والحيرةُ والخوف تغطّي ملامحه، ثمّ قال: «منتهٍ!؟»

أجاب أبو الحسن مؤكدًا: «نعم، وعليك أن تهرب وتنفُذَ بجلدك»

بارتياب: «أهرب؟»

«لا تنظرْ لي هكذا، أنتَ لا تعرفهم كما أعرفهم، نعمْ عليك أن تهرب وتنفُذَ بجلدك!»

«ومَن يستطيع أن يهرب مِن ورطة كهذه!»

وضع يدَه على فمه، وأشار له أن يسكت. أمسك بقلمٍ في جيبه، وكتب على إحدى الأوراق الفارغة بجواره: «اهربْ للبعيد! عدْ لبلادك، وسأساعدك في ذلك»

لاحَ في الأفق بصيصٌ من أمل محفوفٌ بالخوف والترقّب، ثمّ كتب على الورقة مجدّدًا:

«في الأيّام المقبلة سأخبرك ماذا تفعل، لن يكون بيننا اتّصال، ولا تتحدث معي بخصوص ذلك من الهاتف، سنتّفق على رمزٍ بيننا، وسأجهّز لك أوراقًا تمكّنك من السّفر والرجوع بأمانٍ قبل أن يسحبوك نحو السّجن، أو حبل المشنقة إذا ما ثبتتْ عليك التّهمة!»

«لا أعرف كيف أشكرك، وماذا أقولُ لك؟»

كتب مجدّدًا: «لا تقلْ شيئًا، وإن أردت أن تقول اكتب هنا» وأشار للورقة.

أطرقَ برأسه ثمّ رفعها، ونظر نحو الرجل بعينين مملوءتين بالامتنان.

أمسكَ أبو الحسن بالورقة، ثمّ أحرَقها، ووضع رمادها في قبضته، وتوجّه نحو المغسلة، وقام بغسل يده.

أرادَ أن يودّعه بعد ما اتّفق معه أين سيقابله في المرّة القادمة.

كان ينظر إليه مدْهوشًا، وتأكّد أنّ هذا الرجل ليس عاديًّا أبدًا، استجمع شجاعته ووجّه له سؤالًا قبلَ أن يخرج: «ألا تريد أن تخبرني مَن أنت حقًّا؟»

حدّق في الفراغ، وأجابه بنبرةٍ واثقة قائلًا: «لست أكثر من باحث عن السّعادة»

زادتِ الإجابة في حيرته: «باحث عن السّعادة!! أيّ سعادة تقصد؟»

وضع كفّه فوق جبينه واتّكأ على الحائط: «وهل هناك أكثرُ من سعادة؟

صمتَ وزفرَ زفرة، ثمّ أردف: «عمومًا السّعادة ليس لها شكلٌ أو قالبٌ معيّن، بلْ هي نسبيّة لها ما يحقّقها»

أطرقَ عجّاج برأسه قائلًا: «آه، ليتها مُعْدية فتنتقلُ لي عدواها!»

ربّت الرجل على كتفه: «فرصتُك جيّدة، إنّها طاقةٌ لأنّها شعور تتشكّل وفْق حيّزها، فلتكن حيزًا مناسبًا لها، وذلك بمدّ يدِ العون للآخرين». ومدّ يده وصافحه مودّعًا.

بدتْ «يدُ العون» تحفرُ في ذاكرته، ممّا زادَ في حيرته، ولم تنجحْ في أنْ تؤوب به إلى قرار يريحه في سبْرِ غوْر هذا الرّجل، أو أنْ يمسك بتلك الحلقةِ المفقودة ليعرف سرّه.

العودةُ بالذّاكرة

يدُ العون هي الكلمةُ الأكثر غموضًا في واقعِه، واليد الممدودة هي الأكثر راحة وطمأنينة في منامه. أراد أن يصنعَ جلسة تأمليّة ليعيد الحياة للجزء الميّت من ذاكرته فتلك هي الحلقة المفقودة في واقعه، ليس بعثًا؛ وإنّما استفاقة، فهو يعرف أنّ النّوم أخو الموت، وبما أنّ جسده لم يمتْ يومَها وإنّما غابَ عنه الوعي الذي يحرّكه ويحكمه، وغادرته الروح بطريقةٍ أو بأخرى، فهو يعرفُ أنّ ذاكرته في جزءٍ منها ليست سوى ذاكرةٍ نائمة، وليس عليه سوى أن يوقظها بهدوء أو بصخبٍ، أو قدْ يحتاج لما هو أكثر من ذلك، وإنْ نجح في إحياء ذاكرته ومخيّلته النائمة فهل يمكنُ أن ينجح ذلك في أنْ يحيي الذاكرة والمخيّلة الجمعية لمجتمع بعينه؟ ألم يُثبِتْ علم النّفس في أحدث بحوثه أنّ الذاكرة الفردية ما هي إلّا جزءٌ من ذلك العقل الجمعي لمجتمع بعينه؟

طالما أنهكَ نفسَه في الانكباب على أبحاث الذّاكرة التي كان يعمل عليها. ليت معرفته تسعفه بطرفِ خيطٍ يقوده نحو نجاته. حاول عصْر ذاكرته مجدّدًا، فهو يعلم جيدًا أنّ العقل لا يفقد ما يخزنه أبدًا، وإنّما يحتفظ به في أرْشيفات بعيدة يستحضرها عند حاجتها، لكنّ ذاكرته البيضاء

تلك التي تجتاحه بين فترةٍ وأخرى تجعله ينسى أجزاءً من الأحداث. قلّب أوراقه البحثية ورقة ورقة محاولًا العثور على طرف خيط.

إنّ كيفية التخلّص من الأفكار المزعجة غير المسيطَر عليها (الوساوس) كان جزءًا من بحث سابق؛ ولذا فقدِ اجْتهد باحثًا في جهاز الكمبيوتر القابع أمامه يفتّش في تلك الملفّات والأيقونات الموجودة على الشاشة، توصّل لأحدها وأخذَ يقرأ ويحاول أن يربطَ ما يقرأ بما تبقّى من صور في ذاكرته، بدأ يسترجع تلك اللحظات فقد كان يضعُ تعريفاتٍ وخطواتٍ عمليّةً للمادة تمكّنه من عدم النّسيان، نوعٌ من ترابط الأحداث والكلمات بشيفرة خاصّة.

❊❊❊

بدا ذلك اليوم- في ذاكرته- يومًا مجهدًا، مليئًا بالضّغوط في قاعة الأبحاث التابعة للمختبرات الطبّية في الجامعة؛ حيث جلس يعرِضُ أوراقه البحثيّة على اللجنة المكوّنة من الدكتور رمزي مشرفًا، والدكتور جيفري عضوًا، وبحضور عددٍ من زملائه، من بينهم راندي وبيتر. قاعة المختبر مزوّدة بعددٍ من الأجهزة الحديثة، وشاشات العرض، وعددٍ من المناضد والمكاتب الضخمة ذات الطّراز الكلاسيكي المحتوية على الأدراج وخزائن جداريّة بواجهات حديدية مفرزة.

نظر الدكتور رمزي- رئيس الباحثين- لموضوع عجّاج البحثي باهتمام، وخاطبه بعد أن أخذ موقعه بجوار الباحثين: «أنت تعرف أنّ هذه المواضيع هي محطّ أنظار وبحثِ العلماء منذ القديم، لكنّ السّبْق الذي يمكن تحقيقُه في عصرنا هو إضافة قويّة يمكن أن تصنع ثورةً معلوماتية في الذاكرة البشرية، وذلك عبْر المخيّلة؛ فكيف استطعت أنْ تمهّد للبحث؟»

تحدّث عجّاج وهو يعرض الشّرائح عبر جهازه الموصول بشاشة عرض، قائلًا: «التفريغ.. فكما نقومُ بالضّبط (الفرمتة) لأجهزة الكمبيوتر؛ ينبغي أن نعمل هذا الضّبط للعقل والذاكرة، بمعنى أن نُفرغَها من كلّ ما يزعجها.. ننظفها من تلك الملفّات التي تنهكها.. نغلقها ونصرفها إلى اللّا عودة، ولأنّنا بشرٌ يكون ذلك بداية عبْر طاقة الحبّ والتسامح والرّضا»

قاطعَه الدكتور جيفري بفضولٍ حاول أن يدافعه بنبرتِه الجافّة: «هل تقصد عملية مسح للذاكرة؟»

أجاب: «العودة بالذاكرة للرقم صفر (الذاكرة الصفرية)»

الدكتور رمزي: «مذهلٌ ما تقول! لكنْ علينا أنْ ننتبه حتّى لا تُستغلّ العملية وتوجَّه في غير مسارها»

قاطعَه عجّاج: «الهدف من البحث هو الأغراضُ العلمية النافعة، دائمًا هناك سلاحٌ ذو حدين في نطاق التجارب العلمية»

عدّل في طريقة عرضِه للشرائح، بينما كان الدكتور رمزي ينظرُ باتّجاه الشاشة بإعجاب، لم تفارقه عيونُ الدكتور جيفري التي كانت تلتمع بالكثيرِ من الأفكار. عاد عجّاج يُظهر مزيدًا من الأوراق البحثيّة داخل الملف، والتي عمل على تعْديلها لمدّة ثلاثة أشهر من الجهد المضني بين المكتبة والمراجع، وأضاف: «مِن الأهداف البحثية الواضحة التحصّنُ من تلك الشيفرات التي تتكرّر على سمْعنا وعقْلنا، وربّما تظهر أكثرَ في الشخصية الوسواسيّة، ويكون ذلك نتيجةً لحساسية وشفافية وعدم وجود خبرة أو التعرّض الزائد للصدمات الكثيرة» سادَ الهدوء القاعة بعد عرض مجموعة من الصّور الملوّنة التي توضّح رسم مخطّطات للدّماغ البشري بشتى الوضعيّات المفترضة.

تحدّث الدكتور رمزي معلّقًا: «هناك من أساتذة علم النّفس مَن يوضّح أنّ المعركة تدور بين النفس ونظيرها، وهو ما نعرّفه نحنُ بالنّفس اللّوامة، فإذا فقدَ الشّخص السيطرةَ على نفسه تنازعته الأهواء؛ لذلك هناك خطواتٌ تساعدنا لنتعرّف أكثر على ذواتنا ونسيطر عليها.

عاود عجّاج ليوضّح: «نحن نعرف ما توصّلت له الأبحاث، وما ترشدنا إليه، فهي لم تتخطّ أنْ تعلّمنا كيف نحقّق هذا بطريقة أفضل. علينا أنْ نعرف طبيعة هذه الأفكار.. نعرف صيغتها، وبأيّ شكل تتردّد على العقل، وإن لم تتكرّر فهي عارضة، أمّا إن تكرّرت فهي من النفس القلقة التي تدفع بعدم التّركيز عليها، وإشغال النفس بعملٍ نافع،

والتفكير بشيء هادف». توجّه الدكتور مجدّدًا باتّجاه جهاز الكمبيوتر، وقال: «وإذا لم ينجح كلّ هذا؟»

أجاب عجّاج بثقة: «الحلّ يكون عن طريق الذّاكرة الصفرية، نعم إذا لم تنجح كلّ تلك المحاولات ولم نتمكّن من إقصاء تلك الأفكار بالطريقة العلاجية، أو حتى الوقائية؛ علينا أن نصنعَ فيما بعد ذاكرةً جديدة نقوم فيها بحياكة التّفكير عبر المخيّلة!»

دكتور رمزي محاولًا تأصيل الفكرة: «قد أعْتبرها نوعًا من التمرّد على العقل الملتزم بالحقائق، فالخيالُ هو ما تفتقده الذّاكرة الماديّة. إنّه فضاءُ الاختيار الحرّ الذي أرساه البحث من خلال رؤيتي للذاكرة، والعلاقة بين العقل الماديّ والمخيلة. الغموض في الذاكرة يمنحنا أكثر من فرصة للفهم والتأويل، فالحقائق متغيّرة»

صمتَ عجّاج، ثمّ قلّب في أوراقه، وعرض ملخصًا جديدًا، كان الجميع يتطلّعون باهتمام. عاود الحديثَ ملخّصًا الفكرة: «إنّ العلم بوسعِه إعطاءُ الذاكرة ما سبق للواقع انتزاعه منها، فهناك ذاكرةٌ للماضي وخيالٌ للمستقبل، فهل يمكن أن يكون الماضي خيالًا، والمستقبل ذاكرةً أن تسحقَ الزمان فتكون في كلا المكانين بذات الوقت؟ البحث يمكن أن يقدّم لنا الإجابة!»

بدا أثرُ الوجوم على وجْه الدكتور جيفري واضحًا تخلّص منه بسرعة معلّقًا: «إخفاقاتنا أحيانًا هي ما تمنحُنا وعيًا يقودنا لمعرفة كيف نحيا»

لفتتْ عبارته اهتمامَ اللجنة. نظرَ عجّاج نحوه بعينين مستفهمتَيْن، ولمّا لم يجد توضيحًا تابع شرحَه: «هناك سهمٌ يشير إلى تتمّة المادة البحثية في ملفّ آخر»

كانت آثارُ الدّهشة البالغة باديةً على وجه الأساتذة المشرفين على البحث، وعلّق دكتور رمزي: «إنّه بمثابة فتحٍ جديد في علوم الذاكرة.. قفزة فريدة من نوعها!»

أردف الدكتور رمزي: «هناك قائمةٌ من الأفكار المغلوطة التي تمثّل مجموعة من التوقعات والافتراضات، والتي ترسّخت في فترة الطفولة في العقل، وهي بمثابة أداة نقيس ونحكم بها على كلّ ما يمثّل الواقع والمحيط من حولنا، وحتّى لو ترسّخت تلك المعلومات والأفكار بطريقة خاطئة، فإنّه ليس بالإمكان أن نغيّرها بسهولة، وبالتالي تتشكّل الأفكار والمعتقدات بهذه الطريقة لأنّ العقل يتعامل معها كثوابت»

الدكتور جيفري: «المعلوماتُ الأساسية التي نعرفها عن أنفسنا هي معلوماتٌ صحيحة غالبًا لأنّها موضوعيّة، وحقائق مجرّدة كالعلاقات المهمّة والوظيفة ومستوى التعليم»

الدكتور رمزي: «الصّورة الذاتية التي نشكّلها بصورةٍ سلبية قد تحجب عنّا إطار رؤيتنا السليم للحقائق»

قال بيتر- بصفته أحد المشاركين-: «ماذا بخصوص الافتراضات عن النّفس كاعتقادنا أنّنا محدودو الذّكاء، أو أشخاص ظرفاء، أو أنّنا أغبياء أو صالحين؟»

أجاب الدكتور جيفري بذاتِ النّظرة الثاقبة من وراء عويناته مشبكًا يديه على قدميه: «هذه أغلبها تترسّخ في فترة الطّفولة، ويصعب تغييرُها، وتؤثّر على مستقبل الشّخص وحاضره. أبحاث الذاكرة تساعدنا على تخطّي هذه الأفكار والعمل على محْوها وإزالتها عن طريق التفريغ والإحلال»

ينهض الدكتور رمزي يتجوّل في محيط المكتب بجوار الباحثين والمهتمّين، ويطرح تساؤلاته: «هل يمكن للبحث أن يمثّل فتحًا بشريًّا حقيقيًّا؟ المعتقدات يتخطّى تأثيرها هذه الذاكرة والعقل فهي تتحوّل لمشاعرَ وأحاسيس تؤثّر وتتحكّم في سلوكياتنا، ويمكن للمشاعر السلبية أن تقف عائقًا في طريق النّجاح، وتحدّ من تطوير قدرات الشخص الذهنية والبدنية»

يتحدّث أحدُ الباحثين المشاركين بصفته مُحاضرًا في علم الدواء، وهو أمريكي من أصول إسبانيولية، ويدعى مارك قائلًا: «الخروج بمنتجٍ بشري مُتصالح مع نفسه ومع المجتمع من حوله ويتمتّع بالسلام الداخلي الكافي ليمنحه لغيره؛ هو أحدُ أهداف بحوث الذاكرة. هناك

فرق بين تقبّل الشخص والمجتمع لشخصٍ ما بعيوبه، ولكنّه مقرّ بها، ويعمل على إصلاحها؛ وبين قبولها والإقرار بها دون محاولةِ تغييرها والسكوت عنها»

تتقلّص نظرةُ عجّاج مركّزًا حدقة عينيه على الكلمات ليعبّر عن وجهة نظره مجددًا: «في بحثي-ولأنّي أحاول أن أعوّض ما أفتقده- حاولت أن أصنعَ منجزًا متطورًا بشكل مختلف عمّا هو مألوف. لقد جمعت كلا النّمطين العلمي والتخيّلي التجريبي والتنظيري، وهذا جعل البحثَ أكثر ثراءً وغنًى، وهو ذاته ما صنعَ الحياة داخل فكرة البحث، فلقد انتهجت ما تروْن كخطّ سيْر لي، واعتمدتُ في ذلك على أبحاث ونظريات سابقة، وحتّى لا أنزلق بعيدًا فقد أطّرت كلّ ما ذكرت بإطار محدّد بما هو نافع وما هو ضار، ومتى نُقدِم ومتى نُحْجِم، وذكرت المقادير والنّسب بشيء من حذر، ونوّهت لذلك في أكثر من موضع». ينهي جلسته وقد أحسّ بثقل جفونه رغبةً في أن يحقّق الرّاحة لجسده بسِنةٍ من نومٍ لتُبقيه على صلةٍ بأحلامه، فبين الحلم والحقيقة مسافة هي الذاكرة.

ذاكرةُ الحلم

كان النّومُ يتراجع عن جفونه مهزومًا أمام جيش القلق الذي بات يسيطرُ على تفكيره. أحسّ بمرارة تحتَ لسانه، وكم كان متفاجئًا أنّ الأمراض تمتلك قوامًا ماديًّا، وتصبح ذاتَ نكهة ورائحة متى ما أحكمت قبضتها علينا، وقد حاول النّوم مرارًا وتكرارًا لكنّ عرمرمَ القلق يهجم عليه في سِنة منه ليُرجع وعيَه، فيرفع راية اليقظةِ من جديد، وقد اعتراه يقينٌ أنّ دراسته في هذه البلاد واغترابه عن أهله ليعود لهم حاملًا شهادته الطبية في علوم الذاكرة وتصنيع الدواء؛ باتَ أبعدَ ما يكون.

يحاول أن يتذكّر وجوههم. شعر أنّه يعرفهم، أو ربّما مرّوا قريبًا من ذاكرته يومًا، وذلك بعد عرض مجموعةٍ منهم عليه عبْر الشّاشة الزجاجية، وآخرين من خلال صورهم بعد أن فُقدوا في حادث التّفجير. لم يستطع أن يتذكّر، وكأنّ ضبابةً غادرت عقله فأقفر، لكنّ شيئًا ما يضيء في ذاكرته كخيط فتيلٍ في آخر رمقه، فيُشعل منطقةً في ذاكرته قد طواها النسيان:

«ولكنْ يا صديقي، لقد أخبرتك بهذا لأنّ الموضوع على قدر من السريّة، إنّه كما تعلم كبير الفيزيائيّين في الكلية، وأحيطك سرًّا هناك جهة حكومية تدعم أبحاثه»

«لا أعلم يا رفيق، ولكنّي لست مرتاحًا للفكرة»

ردّ بنبرةٍ واثقة وحماسية: «ولماذا تحتاج للراحة؟ دعِ الرّاحة لبيت الرّاحة! (يضحك) وهيّا أَقدِم فسنحصل على الكثير من الدولارات مقابل ذلك»

عادَ الصّمت يلفّ المكان، ليبدي تذمّره الكافي تجاه هذا الموضوع، شعر بأنّ بصيرةَ جدّته قد نفذَت إلى قلبه، وروحها قد حلّت في روحه، فقال: «هناك ما يمنعني.. شيء ما في داخلي لا أرتاحُ له، أشعرُ أنّ الأبيض من الألوان يغطّي رأسي ويجتاحني السكون»

«ما هذا يا رجُل؟ كن صاخبًا! أيّ سكون هذا الذي يمكن له أن يجتاحَ معه هذا المبلغ من المال وتلك الوعود من الدكتور بأن تكون ذراعًا أيمنَ له في مختبرِه الشّهير؟ أنت تتحدّث عن محض هواجس وافتراضات، وما قُدّم دونَ دليل يمكن دحضُ فرضيّته دون دليل»

شعرَ للحظاتٍ بمساحة تلك الجدران مِن حوله تضغطُ على صدره فتُعطيه شعورًا مضاعفًا بالانْقباض، وكأنّها جدرانُ قبر، فصاح مجددًا معلنًا عن نفسه بقوّة، وفارضًا وجهةَ نظره: «قلت لك لن أفعل، ولا تراجعني في هذا»

تقدّم زميلُه خطوات باتّجاه الباب حاملًا أثرَ تعثّره في إقناعه فوقَ ملامح وجهه موجّهًا له كلمات تخفي تهديدًا: «استعدّ لرحلة طويلة!» وخرج تاركًا الباب مواربًا خلفَه.

تفكّر عجّاج وهو يجلس أمام الجهاز، والملفّاتُ مفتوحة أمامه: «رحلة طويلة! ماذا يقصد؟»

مختبر جيفري

رحلةٌ طويلة وشاقة قطعَها جيفري ليصبح الدكتور الأثيرَ في الكلية، المسئول الثاني عن المختبرات الطبيّة في الجامعة، صاحب الخبرة العظيمة في الأبحاث الطبيّة ومروّض العقل البشري، وقد حازَ هذا اللقب إثرَ تاريخٍ حافل بالمؤتمرات والأبحاث العبقريّة.

يعرف طلّابه جميعًا أنّه يمتلك ذاكرةً حديدية، ووجهًا يُشع حدّةً وفطنةً بعيون لامعة تتكئ عليها عويناتٌ زجاجية لا تفارقها إلّا للَحظات يسندها ذلك الأنفُ الحادّ والبارز من ملامح وجه لرأس صغيرٍ رُكّب على جسدٍ نحيل أضناه العملُ والتفكير الطويل وكثرة الانهماك خلف البحوث والدّراسات. يسعى وبشغفٍ للحصول على موافقة فريق الأبحاث الصفرية على تقديم بحثه الطبّي في علم الأدوية لخدمة مشروعه الأخير.

اجتاز مسرعًا الممرّ الموصّل لغرفة التحكم. لبس نظارته الخاصّة..

جلس خلف كرسيّه يعطي الأوامر، ويشرف بنفسه على الشاشات الإلكترونية التي تنقل بثًّا مباشرًا من ميدان التجارب مجهولِ الموقع والغرف الخاصّة التابعة له. كان هناك عددٌ من الأسرّة غير واضحة

المعالم يتمّ مراقبتها بواسطة أشعّة كاشفة للأجسام عبر الظلام، وعلى هذه الأسرة كان ما لا يمكن لعقلٍ بشري أن يصدّقه، المشروع الأكثر سريّة في العالم المتقدّم، والذي يشرفُ عليه الدكتور جيفري بتمويلٍ من جهة غير مُعلَنة.. إنّها أبحاث حول الذاكرة البشرية الصفرية.

انتهى من مراقبته، خلع نظّارته ودوّن بعض الملاحظات على كشوف تعجّ بالأرقام والحقائق والأسماء، ثمّ شبّك يديه، وبدأ يتحدّث بشغف لمجموعة الباحثين المحيطين به: «عدد الخلايا العصبيّة في المخّ يبلغ حوالى ١٠٠ مليار خلية، ويبلغ عددُ النبضات الكهربائية التي يولدها مخ بشريّ واحد أكثر من عدد النّبضات الناتج عن كلّ الهواتف النقالة الموجودة في العالم مجتمعة، كما يوجد بداخل المخّ أوعية دموية تمتدّ بطول ١٠٠ ألف ميل، ويعتقد العلماء أنّ عدد الأفكار التي تجول بداخل العقل البشري في اليوم الواحد هو ٧٠٠٠٠ فكرة». توقّف وطلب من أحد الباحثين أن يجهّز العروض للشرائح عبر الشاشة الإلكترونية. تحدّث الباحث بحماس وهو يعلّق على الشّرائح لينبئ عن خبرةٍ ومعرفة بما يعمل عليه: «على عكس المتداول بين الناس، فالعقلُ البشري لا ينسى أيّ شيء، مهْما كان بسيطًا أو غير مهمّ، إلّا أنّه يحجب المعلومات غير المهمّة في ركنٍ بعيد، أشبه بالأرشيف، لاستدعائها حين الحاجة، ويُبقي المعلومات كثيرةَ الاستخدامِ والمهمّة في مكان بارزٍ من الإدراك، حتى تظلّ حاضرة دائمًا»

اشرأبّت نظرة الباحث ليحوزَ على اهتمام خاصّ من الدكتور جيفري، فهذا يعني امتيازات مادية قادمة، لكنّ الدكتور جيفري الذي يعرف متى ينْفق مشاعره ونقودَه تابع الحديث: «عقل الإنسان يستهلكُ بحدود ٢٠ ٪ من إجمالي الطاقة التي يتمّ توليدها في جسم الإنسان، على الرغم من أنّ العقل لا يمثّل سوى ٢ ٪ من إجمالي وزن الجسم. هذه الطاقة ضرورية للحفاظ على خلايا العقل سليمة، ونقل النبضات العصبية، ومن العجيب أنّه إذا فقدَ المخّ الدم الواصل إليه لمدّة ٨–١٠ ثوانٍ سوف تفقدُ وعيَك مباشرةً، أمّا إذا وصلت المدّة إلى ٥–٦ دقائق يبدأ المخ في الموتِ والضّمور تدريجيًّا، وكلّما تقدّمت الأبحاث العلمية والتكنولوجيا الحديثة كلّما زادت حيرة العلماء من قدرات العقل البشري».

كان يعزّز حديثه بالاستشهاد ببعض الأبحاث: «فلقد أثبتتْ دراسات حديثة لأبحاث الدماغ أن جميع قراراتنا تُصنَع في العقل اللاواعي قبل خروجها إلى عقلنا الواعي بـ ٧ ثوانٍ على الأقل، كما أثبتتِ الدّراسة أنّ عقلنا اللاواعي لديه قدرة على معالجة المعلومات بسرعة تفوق عقلنا الواعي بأكثر من مليون مرّة، وإلى الآن مازال العديدُ من وظائف المخ مبهمَة للعلماء، ومنها مثلًا الذاكرة والذكاء».

سحبَ نفسًا عميقًا من عمق رئتيه، وأطلق زفيرًا بنكهةِ مُنتصر، وأردف وهو يشبّك يديه: «نحن نعملُ على هذه الذاكرة. نحاول إعادتها

إلى نقطة الصفر، تشكيلها من جديد.. صناعة عقل بشريّ بفكر متعلّم كي نواجه بهذا أصحاب التطرف الفكري والاشخاص الأقلّ ذكاءً! ثورتنا هذه هي ثورة العقل وصناعته تمامًا كما تصنَع ثوبًا بمقاسك. نحن نمنح البشرية عقلًا جمعيًّا جديدًا قابلًا للتشكيل والتعبئة بما نرغب.

بدتْ سيماءُ الرّضا واضحة على تلاميذه الخمسة الذين يعملون تحت إشرافه، ويعلم هؤلاء مقدار الحظّ الذي ينتظر مستقبلهم بتعاونهم مع شخصيّة مشهورة ومجنونة في ذات الوقت». كان يتمتم بالتالي وهو يطوفُ بين الباحثين: «طوالَ عقود من الزمن، مثّل ذكاء العقل البشرى مصدرًا لدهشة وحيرة العلماء».

وجّه بعض العاملين في المختبر، وعاد إلى مكتبه. جلس وأسندَ ظهره لكرسي جلدي وثير ونظر في الساعة الجدارية المعلّقة، ثمّ ضغط على كبسة الاسْتدعاء الفوري، وطلب إدخال الباحث الذي كان ينتظره خارجًا. دخل منكّسًا رأسه تبدو عليه ملامحُ الخيبة، وألقى التحية.

«ما بالك؟» سأله جيفري باقتضاب.

«لم يَقبلِ العرضَ سيدي، حاولت معه بكلّ الطّرق». أجاب وما زال محدّقًا بمواطئ قدميه لم يرفع ناظريه.

قال الدكتور باستياء: «كيف لم يقبَلْ؟ لا مجال لعدم القبول، ألم أقلْ لك إنّني بحاجة لذاكرة هذا الرّجل، وبحاجةٍ لبحثه الأخير حول بعض

أدوية الذاكرة؟ إنّه قاعدةٌ وركيزة أساسية في عملنا. لا يمكن التراجع عن هذا».

بتصنّع ومَكْر قال: «ليتك تقبلُ بي وحدي، لقد بذلتُ وسعي معه.. خمس محاولات يائسة. إنّه عنيدٌ وجافّ وهادئ بطريقةٍ تثير جنوني، لا يستثيره المال ولا الشهرة».

صوّب إليه نظرات فاحصة: «آهه.... حسنًا». صمت وحكّ رأسه، وفكّر قليلًا: «أقبلُ بك إن استطعتَ أن تمتلك ما يمتلك ذلك الرجل!»

عاود جيفري الصمت، ثمّ نظرَ نحوه نظرةً فاحصة، وأردف مشيرًا له: «تدبّر أمرَك»

اكتسحتْه موجةٌ عارمة من الفرح، تمالَك نفسه، وقال: «سأثبتُ لك مهارتي سيدي.. قريبًا»

أجابه قائلًا وقد أشار نحوَه بحركةٍ من يده بالانصراف: «حسنًا! أمنحك مهلةَ شهرٍ من الآن لترتب أمورك، ثمّ ترجع».

الحقيقةُ والحلم ١٩٩٨

انسحبَ من أمام جهاز الكمبيوتر مُقفلًا شاشته على رحلة البحث الطويلة محاولًا أن يفتح نافذة تطلّ على ذاكرته. في تلك الليلة في ما يخالط الحقيقة بالخيال والواقع بالوهم، صار ينسج في أحلامه ما يرغب أن يعيشه في واقعه، فتهيّأت له صورة من الحُسن والجَمال الأنثوي هي خليط من ذاكرته في وجْه محبوبةٍ نورانية في عالم النّسام العليّة لتجتمع المخيّلة بذاكرة الحلم، فكان أن أخذتْ بمجامع نفسه، ومالت نحوه بعد مخاض مشاعريّ عسير، فشعر بنبضِه وضخّاته كقرْع طبول، وكانت قد انتبذتْ منه مكانًا قصيًّا، فخاطبها في عالم أحلامه المنسوج من أوهامه وهي مازالت في مهْدها: «وإنّي أحسب وجهك النورانيّ هو تاريخ مولدي على هذه الأرض، فالجَمال الذي تتولّاه عناية الخالق يجعل الحبّ عذبًا، فكما تصْحو الأحلامُ السعيدة بطلوع فجْرها إثر سِنةٍ من خَيال في عقلِ مُحب، أصحو على مرآك، وهذا حالي معك أبدًا، فما المخيلة إلّا هدية السّماء للأرض، ونسيجٌ علويّ مبتغاه تلك الذكرى التي تكسونا بحلّتها الأبدية».

استجمعتْ شتات نفسها وتستّرت على وهَنِها المتراكم بصورتِه البشرية المادية كجلمود حطّه سيل الذّكرى من علٍ، فقالت: - «والآن

أراك صاخبًا، ولم أكُ أسمعُ لك صوتًا، لقد جاورتك أيّها الحبيب عمرًا- مشيرةً إلى ذلك النسيان- وحاولتُ معك مرارًا أن تفتحَ لي طريقًا يُسهّل لي الوصولَ الى غورك المحتجِب عنّي، وما أنت إلّا أقربهم منّي، فما كنت يومًا غوثًا لي ولا عونًا، وتستّرت بنسيانك، وتركتني في حيرتي أدورُ في دوّامتي، وأقترب من حتفي».

«كيف وحقيقتي غيرُ مكشوفة لك! وما تصنّعت تلك الحجب التي أسدَلتْها أوهامُ لواحظك، وإنّما آنستُ أشواقًا تصْطلين بها، فعرّجت عليها لعلّي أجد جذوةَ ذاكرتي المنصرمة بينها فآخذها قبسًا ينيرُ عتمتي التي كسَتْني، وما أشرقت شمسي منذ سنوات خلَتْ».

صاحتْ به: «أتستبدلُ الشّمس بقبسِ نورٍ، وقد كنتُ نفسي مادّة النّور الأبدي فيك؟»

تسارع وجيبُ قلبه مجددًا، فندّت من جبينه قطراتٌ على إثرِ حرارة الشعور التي طرأت، فألجمته قائلة: «قبسٌ يعيد توهّجي خيرٌ من شهابِ تهمةٍ ترميني به على مرأى الحواس التي كانت شاهدة على تخلّيك عنّي؛ فلا تعذلني. أمَا زلت تبحث عنّي خارجًا وما عرفتَ أني داخلك!؟» فتردّد الصوتُ في طيف الحلم مبتعدًا عنه بصورة شعاعٍ من نور يذوب في الأفق، ليصحو متعرّقًا لاهثًا تكادُ أنفاسه تتقطّع، وقد غطّه الطيفُ ثلاثًا حتّى أفاق. كان حلمًا لا يختلف عن الحقيقة في شيء وقد تجسّدت

ذاكرتُه بصورة يستطيع أن يستشعرها كشيء ملموس وكأنّ الخيال بات حقيقة والحلمَ صار واقعًا.

أزاح اللّحاف عن بدنه، ومسح حبّات العرق التي تقاطرتْ من جبينه كقطراتِ النّدى، وقد كانت دليلَه الماديّ على تذكّر تفاصيل حلمه، نهضَ من فراشه وأشرع النّافذة للنّور، لفحته هبّة هواء مُنعشة جعلته يشتاقُ لأشياءَ كثيرة حرّرتها تلك الرؤيا في داخله، بَيْد أنّه لا يدرك ماهيتها، أغمض عينيه وراح يسحب نفسًا عميقًا يخرج من عمق رئتيه، حتّى هذه الروائح التي تحملها الريح تشكّل جزءًا من ماضيه وحاضره. إنّها رائحة العشب المجزوز التي تذكّره برائحة البيادر، باتت الألوان تُتعبُه لأنّها تمثّل صورًا ملوّنة للحياة التي لا يعرف منها سوى الأبيض! ذلك الأبيض الذي يجتاحه! سار نحو النافذة مجدّدًا- مُستجيبًا لخوفه- وأغلقها. تخلّص من الألوان التي تمثّل الصور، ولكنّه لم يتخلّص من الروائح في أنفه؛ فهي حياةٌ بنكهة أخرى، ثمّ تحرّك باتجاه جهاز الكمبيوتر مجدّدًا، بشغف الباحث عن الحقيقة حتّى وإن كانت داخل الحلم توقّف عند بقايا الصور في عقلِه، ماذا لو كان هذا الحلم يقوده نحو الطريق! تساءل: تلك المحبوبة في منامه لا تحمل وجه فتاةٍ عرفها يومًا، إنّها لا تبدو بشريّة حتّى! وتلك الكلمات التي كانت تردّدها، هل يمكن أن تكون ... أوحت له أفكارُه إعادةَ النّظر لتلك الكلمات، بدا وكأنّه يقرأها للمرة الأولى، لقد أدهشته! تذكّر.. لقد سطّرها كسؤالٍ

وجواب كشيفرة في أحد أوراقه البحثيّة: هل يمكن للشّواهد الحسّية والوجدانية- أو للأحلام- أنْ تكون دليلًا على شيء ماديّ ملموس؟ يحتاج هذا لسبْر أسرار النّفس ومتعلّقاتها فجزءٌ كبير منها مازال من الغيبيّات موجودًا، لكنّنا لانملك الأدوات التي تمكننا من قياسه أو إحاطته وعدم قدرتنا هذه لا تنفي وجودَه، فالعلم أعلى من العقل إذْ كان للعرب قديمًا قدرتهم في الاستدلال على عظمة الخالق من معرفة أثره في هذا الكون».

انتهى من القراءة، ورفع بصرَه في الفراغ، بدا مُجهدًا وشاحبًا، لكنّه مصمّم على أن يمسك بأطرافِ حلمه ليمنحه ذاكرةً أبقى، استشعر نبضَ قلبه وسمع له وجيبًا جفّ حلقه، وأحس بمرارة في جوفه تتصاعد، بقي مغمضًا عينيه لم يستطعْ أن يفتحهما ليبقي نافذةَ ذاكرته مُشرَعة على الماضي، فتهافتت أمامَه الأفكار مرّة واحدة.

استطاع ببحثه الدّؤوب ومواصلتِه لتمرينات الذاكرة التي اشتغل عليها لفترة طويلة بإشراف الدكتور رمزي؛ أن يحقّق تقدمًا في استرجاع الذكريات، فلقد راوده حلمُ السّنور مجددًا، لكنّه لم يفلته هذه المرّة حتّى تمكّن من فكّ رموزه، وتعرّف إلى تينك العينين، وإلى اليد الممدودة لعونه. «يا الله! إنّه لا يصدّق! هل يمكن أن يحصل هذا حقًّا؟! إنّه لا يحصل إلّا في الأحلام، وها هو يحصلُ في ذات الحلم الذي تكرّر عليه لسنينَ طويلة، إنّها ذاتُ العينين اللّتين لطالما تساءلتُ أينَ رأيتُهما! آه أيها

اللعين! أيّها الجبان الخائن! إنّها عيناك، ولوْلا تلك اليد الممدودة نحوي لم أنْجُ من ذلك اللعين. لقد توضّحت الرؤيا لي، كيف غفلتُ عن ملامح الرجل الذي كان يمدّ لي يدَ العون طوال سنين؟ هل يمكن للذاكرة أن تكذب؟ ولكنّ القلب يصادق على ما فيها! كان هو مخلّصي، إنه تلك اليد الممدودة لي في حلمٍ راودني طفلًا لأجدها ذاتها في واقعي شابًّا... يا الله! هل يمكن للأحلام أن تتجسّد واقعًا!!؟ ما هذا؟»

«ربّما أنّ الأحلام هي نوعٌ من التمرّد على العقل الملتزم بالحقائق، والخيال هو ما تفتقده الذاكرة المادية».. فهل يمكن لنا أن نتمرّد على حقيقتنا البشرية؟

قصاصات.. لوس أنجلوس

«لا إمكانية للعودة بالزّمن إلى الخلف، ومع مروره، يتقدّم البشر في العمر، يتسبب ذلك التقدم بإرهاق الجسد، فمنذ الولادة يبدأ الإنسان بالموت، تتحلّل خلايا، وتُستبدَل بأخرى، ليظهر علينا تأثير الزمان».

وضّح الدكتور رمزي- مدير معهد الأبحاث الطبية على الأعصاب والذاكرة- وجهةَ نظره خلال لقائه بالصّحفية جانيت، والتي تتتبّع قضية الرأي العام في الأبحاث الصفرية. يُعتبر الدكتور رمزي الشّخصية الأبرز في علوم الدواء، والمشرفَ الأوّل على المختبرات والأبحاث حيث أنّ له تاريخًا عريضًا من التفوّق والنزاهة. يجلس إلى مكتبه الخشبي تجاوره مكتبة مصغّرة مليئة بالمجلدات والكتب مختلفة الأحجام. يتسلّل النورمن نافذةٍ بامتداد الجدار من وراء ستارة من قماش التول الشّفاف، تقابله على مقعد جلدي أسود- جانيت- الصحفية مرتديةً قميصًا من قماش حريري بلون بنفسجي جريء، وتنّورة قصيرة من الساتان الأسود المطفأ تضعُ ساقًا فوق أخرى، وتتحدّث في محاولة منها لتمسك بخيوطِ القضية من بدايتها، وتجميع تلك القصاصات التي بين يديها: «منذ زمن بعيد، يحاول البشر مكافحة «شيخوخة الجسد»

عبر استعمال المستحضرات المختلفة، ولكن- وبطبيعة الحال- تُعدّ مكافحة الشيخوخة مستحيلةً بطبيعتها، إذ أنّ التقدم في العمر شرط ضروري للاستمرار».

يقاطعها الدكتور رمزي الذي لم يستطعْ أن ينحى بعينيه بعيدًا عن التفاصيل الجميلة لتقاسيم وجه جانيت المنحوتة كتمثال قادمٍ من الأساطير، وربّما كآلهة فرعونية أو إغريقية بكامل عظمتها وقد دبّت فيها الحياة مجددًا، فتحرّك فيه دمُ الشّباب، فقال مُداعبًا الصّحفية: «ولكنّ جَمالًا كالذي تتمتّعين به - جانيت- لا يمكن أن يشيخ!»

صرّت جانيت عينيها، وظهرَ عليها بعض الخجل، فهي تعرف أنّ وقْع شخصيتها كصحافية هو ما يحفظُ لها هذا البريق، فقالت: «لا شيء ولا أحد يظلّ على حالته، أو شكله للأبد، وهذا معروف لدى البشر جميعًا... ألا توافقني؟»

انزلقت الكلماتُ من بين شفتي الدكتور رمزي المزمومتين بحركة لا شعورية مصاحبة لردّة فعله وحيرته في الإجابة، فقال: «على الرغم أنّ الحقيقة راسخة إلّا أنّ محاولاتنا البقاء أصغر من العمر الحقيقي لا تزال مستمرّة. عمِلنا على شيء مختلف ومُبْهر ومستند على تلك الأبحاث للذاكرة الصفرية التي تجمعين خيوطها، أي أنّنا عملنا على وسائل إزالة تجاعيد الذاكرة». قهقه بصوت مجلجل.

قاطعت ضحكَه كمَن أمسك بضالّته: «أعتقد أن النتائج تدعو للبكاء!» أثارت حفيظته، ثمّ عدّلت جلستَها، وسألت: «دكتور رمزي، ما هي قصّة ذلك المستحضر الدوائي؟ وهل هناك ثمّة مخاطر من استخدامه؟»

أخذَ وضعيّة مريحة في جلوسه، وأسند ظهره للمقعد الجلدي. بدا الضّوء المتسلل من طرف السّتائر خفيًّا منعكسًا على صفحة وجهه المستديرة، وعينيه الزرقاوين، ممّا زاده هيبة في نفس جانيت، والتي اعتادت على تلك اللّقاءات الحيوية مع شخصيات هامة، فصرّح قائلًا: «كان أحد زملائي يجري تجربةً علمية على رجليْن من عَيّنات المتبرعين باستخدام جرعةٍ محدودة من مادة البحث المستخدمة من قبَلي أنا وعجّاج خلال بحثه عن الذّاكرة الصفرية ومحاولته الخضوع لبعض التمرينات العقلية التي أشرفتُ عليها بنفسي. تمكّن زميلي هذا بعد حصوله على نتائج البحث عن طريق مُساعِدِهِ من تكرار التجربة- وعن طريق الصدفة- اكتشفَ خصائص أخرى في تلك المادّة السّامة وغير المعروفة».. صمتَ الدكتور رمزي برهةً وأردف: «هذه معلومات هامّة وكانت سريّة لم يدوّنها أحد، وإنّما يشهدُ على صحّتها مَن عاصر البحث معنا» وتابع حديثه قائلًا: «كان زميلي يعمل في أحدِ المختبرات المخصّصة لتجاربه، عبر حقن العينات بسمّ معين يُسبّب شللًا مؤقتًا في الدماغ، وفي أحد الأيام، وأثناء عملية روتينية لحقن المادة، قام بحقن

أحدهم عن طريق الخطأ، وبعد أيام لاحظ الدكتور اختفاءَ معالم الذاكرة بشكل كامل، توجّه لأبحاث الذاكرة الصّفرية، وتساءل عن السّبب، وقام بإعادة اختبار المادّة وكمية الجرعات؛ فتبيّن أنّ ذلك السُّم هو السّبب».

باهتمامٍ بالغ قالت جانيت وقد دارت حدقتا عينيها لتعود بثبات: «بعد عام واحد على ذلك الخطأ، ذاع صيتُ تلك المادة، وامتلأت مختبرات الدكتور الخاصّة بالعينات، ومعها انتعشت خزائنُ الدكتور بملايين الدولارات، فالمادة المعروفة على نطاق ضيّق أطلق عليها اسم «الصفر الدّوائي»، لها قدرةٌ غريبة على إزالة الوعي وإلغاء الذّاكرة.

قاطعها الدكتور رمزي موضّحًا: «منذ ذلك الحين، انقطعت علاقتي بالبحث، ورفعْتُ يدي عن شراكته العلمية».

قاطعتْه مجددًا لتمسكَ بزمام الكلمات قائلة: «خرج الماردُ من الزجاجة، ودأب الدكتور ببحوثه المستمرّة وتجاربه المطوّرة على التّعاقد مع المنظمات السريّة وغير المعروفة حول العالم لمحو الذاكرة»

وضّح الدكتور رمزي: «تعدّ مادة الصفر الدوائي أحدَ السّموم المستخرَجة من جراثيم (غير معروفة)، تقوم تلك المادة بشلّ الذاكرة بشكل مؤقّت، تُسبّب تلك العملية تأثيرًا على المدى البعيد، وبالتالي ينجُم عنها إخفاءُ تلك الذاكرة بصورة مؤقتة قدْ تصل إلى نحو سنة كاملة»

صمت لبرهة ثمّ أردف:

«إنّ تلك العملية تستلزم حرصًا شديدًا، ومهارة طبية متميّزةً في حساب كمية السّم اللازمة، إذ أن الزّيادة في الجرعة قد تؤدّي لمخاطر، الأمر الذى قد ينجم عنه الوفاة»

أضافت جانيت التي بدتْ متمكّنة من معلوماتها: «الإجابة يقدّمها أستاذ علوم الأعصاب بالمعهد الطّبي المسئول عن التجارب، على الرغم من كوْن مؤلف تلك الأبحاث والدراسات العلمية هو مجموعة من الباحثين- كما وضّحت لي- والتي تُحذّر من خطورة استخدام السمّ»

تابعت وقد أحضرت معها ورقةً قديمة وضعتها أمامَه على المكتب، أشارت لها قائلة: «نُشِرت الدّراسة في دورية الجامعة الشهيرة، وجاء في نتائجها أنّ سموم الصفر الدوائي من بين المواد الأكثر فتكًا على الأرض، وبالنظر إلى سميّة تلك المادة غير العادية فإنّه يتمّ التأثير فقط على الأجزاء والأعصاب المريضة غير المرغوبة فقط، وذلك في نطاق العلاج في الحالات الأشدّ خطورة، كيف حصل وأنِ استفرد الدكتور بنتيجة البحث؟ هنا السّؤال!»

أردفت: «في ١٩٩٨، وبعد أن نُشرت تقاريرُ عن حالات وفاة متعلّقة بآثار انتشار السّم، تمّ التغطية على الموضوع برُمّته»

وضّح الدكتور رمزي وجهةَ نظره بقوله: «لقد جاء في التّحذير بعد

إجراء التجربة وعلى هامش البحث أنّ ذلك السّم قد ينتشرُ من منطقة الحَقن الأساسية، مُسبّبًا أعراضًا تتفق مع حالات التّسمم، وهو الأمر الذى عزّز من قلق الرّأي المناهض لاستخدام ذلك المستحضر»

قاطعت جانيت لتضيف: «ومِن وقتها، نُشرت مجموعة كبيرة من الدراسات العلمية التي تُحذر من آثار استخدام السّموم على المدى الطويل، ومنها الدراسة التي نفّذها فريقٌ بحثيّ من ذات المعهد والمختبرات التي يشرف عليها الدكتور رمزي»

أحنى ظهرَه للأمام، وأرخى يديه وشبّكهما على طاولة المكتب أمامه، ثمّ أضاف مؤكدًا: «نعم وقتها أعلنتُ- ومازلتُ- تمسّكي بالمقولة الشهيرة للفيزيائي السويسري باراسيلسوس، والذي عاش في القرن السادس عشر، والذي يقول: (إن كلّ المواد سامّة، ولا شيء غيرُ ضارّ، فالجرعة وحدها تقرّر سميّة المادة من عدمها)»

كان مذهلًا ما تسمعُ على الرّغم من أنّها الصّحفية جانيت أحدُ أشهر الأقلام المثيرة للقضايا الإنسانية في الولاية. قالت غير مصدّقة: «لا يمكن أن يتمّ إخضاع البشر لمثل هذا النوع من التجارب!»

استدار الدكتور رمزي بنصف التفافةٍ من على كرسيّه باتجاه النافذة. قطّب جبينه بشيء من حذر وسحب شهيقًا ونفثه بقلق، ثمّ عاد مخاطبًا

جانيت: «لا أرغب بأن يُذكر في تقريرك الصحافي الإشارة لي من بعيدٍ أو قريب. أنا أفعل ما يُمليه علي ضميري الإنساني»

جانيت محاولةً أن تُمسك بطرفِ الخيطِ مجددًا: «وأنا سأفعل ما يُمليه عليّ حسّي الصحافي. سأجعل من الموضوع قضيةَ رأي عام!»

عودةُ المسافر

في المطار، كانت وجهته جزرَ المالديف، انتظم في طابور طويل، باتت مظاهرُ الشّرود والتعب جزءًا من جسد عجّاج منذ اليوم الذي تلقّى فيه رسالة وفاةِ جدّته. أحسّ بأن الوحدة باتت جزءًا منه، وأن حياته توقّفت معها، وكأنّه كان قطعةً منها لأنّ ثمّة أشياء كثيرة تغيّرت في حياته ولم يعد يلقي لها بالًا، لكن ما حاكَ في صدره كان كثيرًا، تحدّث لنفسه مودّعًا: «أردت أن أعيش واقعًا لا خيالًا، يشدّني من غياهب النّسيان ويسري بي نحو معراجِ قلبي لتبقى لي أمنيات حملتها في سراة السّائرين على طوية بيضاء كبياض القمر في ليلة بدريّة. أخذت أتأمّل وأتجول بأفكاري بين معلوم ومجهول، وحين ارتدَدت على عقبيّ لم أجدْ إلّا خواءً وإقفارًا فتعرّت أفكاري من كسائها وتجرّدت، لكنّ تلك الزوايا المعتمة في ذاكرتي على ذات الطريق تخشى يقظة السائر على حيدِه فتلوذُ منزوية، وكأنّ الأصل فيها أن تعود لأصلها الذي خُلقت منه، فما زالت العتمة سترًا فوق السّتر الذي يرقد كامنًا في أطواء عقلي، وكأنّما طُبعت عليه قدَرًا».

وحين جاءَ دورُه للعبور نظرَ الموظف إليه، وصمتَ، ثمّ نظر مجدّدًا، ثمّ عاد واستقامَ في جلسته، شعرَ عجّاج بالخوف يتسرّب إلى أطرافه

فينزلقُ منه برعشةٍ خفيفة، بدا لديْه رغبةً في طرح بعض الأسئلة، ارتبك عجّاج، وكادَ يرجع خطوةً للخلف، أدارَ رأسه ثمّ استقام في مكانه، وتنفّس من أعماقِ رئتيه، وقرّر أن يطرد تردّده وحيرته لمرّة واحدةٍ في حياته. مرّة أخرى كادتْ ذاكرته البيضاء تعودُ له مجدّدًا طامسةً معها ملامحَ يومه، لكنّه رابَط على تُخومها متمسّكًا بها مستغيثًا أن تسعفه، استجاب لنداء الرّجل، ولم يقلْ شيئًا إلّا بقدر السّؤال. عاد ونظرَ في وجهه، وبصوت ونظرات حيْرَى ومتردّدة كانت تقتله، وضعَ أختامَه على جواز سفره، وكأنّه يطبعُ قُبلةَ الحياة على جبينه، لحظاتٌ قاتلة شعرَ خلالها بالدّوار، وكان الموظّف قد أخافه وأربكه.

بتُّ ليلتي تلك أصارعُ أوهامي وحسرتي كحسكةٍ نشبتْ في حلقي لا أزدردها، ولا أُحسنُ إخراجها. قضيتُ اللّيل على الأرضية الخشبية في إحدى صالات الانتظار في المطار، والتي اجتزت لبلوغها ممرًّا طويلًا على امتدادِه هناك سياجٌ من قضبان حديدية أوْحت لي أنّني داخل زنزانة. بجواري كان يجلس رجلٌ أفريقيّ قصير، ومعه زوجته، يدور بينهما حديث هادئ. بدا الضّجيج الذي يعمّ المكان كبيرًا نسبةً لعددِ الأشخاص المتواجدين فيه، وكثير منهم مغادرون إلى مناطقَ مجاورة لغاياتِ العمل، أو لقضاء الأجازة في أوطانهم. تحرّكتُ وفق ما أخبرني به أبو الحسن حينَ بعث لي برسالةٍ مع الرّجل الذي ينظّف السكن. كان حريصًا على عدم انكشاف سرّي حرصَه على نفسه. ليتني أستطيعُ أن

أجازيه الآن! صِرت أفهم الكثير من كلماته مثل يد العون والعطاء وحيّز السعادة ومساعدة الآخرين، إنّه أحدُ المستنيرين في هذا العصر متنقلًا بين البلدان من الشرق إلى الغرب، لكنّه استقرّ أخيرًا في الولاية، وكان هذا من حُسن طالعي.

في كلّ لحظة، كنت أنظرُ حولي أشعرُ وكأنّ هناك مَن يتربّصني وينتظر ليقبض عليّ! ليتَ ملكَ الموت كان ذلك المتربّص بي، فلربما كنت سأرتاحُ من عناء الترقّب والخوف ومشاعر باتت تكتنفني فتأسرني في قمقمٍ من الرّعب. لم أتخفّف من ذلك الشعور إلّا حين استقرّت قدمي في الطّائرة التالية، والتي تُقلع من جزر المالديف باتجاه عمّان.

في الطائرة، كنت في الرّكن القصيّ بجوار النافذة. بدتْ رحلتي طويلة، وكأنّها إلى الدار الآخرة، وقد نمتُ لعدّة مرّات حلمت أثناءها بأحلامٍ متقطّعة وقصيرة. أغلب المسافرين على الطائرة من أبناء البلد العائدين إلى الأوطان، كان سهلًا عليّ أن أسمع الصخب والعربية بلهجتنا المتنوعة من الشّمال للجنوب. لم يكنْ هذا ما حصلَ في الطائرة الأولى التي أقلعت بي من مطار لوس أنجلوس إلى جزرِ المالديف، سائح من أصول عربيّة، وهويّتي التي منحني إيّاها أبو الحسن تمكّنني من مغادرة البلاد!

الفتورُ هو ما اكتنف المشاعرَ والمكان عند وصولي، الوجوه تناظرني بغرابة وفضول، لم أمتلك الجرأةَ لأحدّق في عيونهم. بدا وجهُ فايزة

مخطوفًا عندما أخبرها أبي بأنّي هارب ولم أعدْ طالبًا للعلم. كان حانقًا تتلألأ في عيونه الدموع، وغصّ بحسرة كبيرة.

لم يفهمني أبي، وظلّ يلقي عليّ باللائمة. بدوت حِملًا كبيرًا عليه! لا بدّ أن أوضّح له أنّي كنت مثلَ الآخرين، وأنْ لا ذنب لي فيما حصل. لم يفهمْني مجدّدًا، وشعرت أنّ كلّ ما أفكر به لا جدْوى منه، وليس هناك فرقٌ بين أنْ أترافع عن نفسي وبين أنْ أبقي جراحي طيّ ذاكرتي الأولى التي لم أعدْ أحتاجها. حين تمكّنت منها واسترجعتها كنت قد فقدتُ جدّتي ومستقبلي فهل ستنفعني ذاكرةُ الماضي العائدة لي بكلّ تفاصيلها، أم تُراها ستبني مستقبلي من جديد؟ لقد تأخّر أحدُنا في الوصول للآخر، تأخّرتُ في بحثي عنها، وتأخّرتْ في العودة لأحضان عقلي الذي استودعتُه كهفَ النّسيان فنامَ سنواتٍ وازداد فوقَها شهورًا وأيامًا، ولمّا استفاق كان كفتية الكهف حين ذهبوا بدراهِمِهم الى السوق».

وشوشاتٌ كثيرة خرساء بدتْ في وجوه مَن يعرفونني، لم أكنْ بحاجة لها لتكمل على أنقاض روحي، صرت أسيرَ هواجسي.

«هآنذا قد عدتُ هاربًا. نجوت بروحي متكتّمًا على سري. كيف لأبي أن يتفهّم رجعة غائِبه دون الشّهادة التي كان يحلم بها! ومَن سيصدّقني إنْ بحتُ بأسراري؟ قرأتُ في وجوههم اتّهامهم لي ولم يواجهوني به، أو حتّى يسألوني، ليتَهم تحدّثوا معي بهذا! كلّه كان يجري

من ورائي. تغيرت الملامحُ ولم يعدِ المكانُ هو المكان، هناك فجوةٌ هي أبعد من الماضي وأقربُ من حاضري المشوّش، أُحسّ نفسي وقد رقدتْ فيها. انتظرتُ أن تأتي هند لتزورني، وأنْ أرى ابتسامتها، وأنْ أشعرَ بأنّها مازالت تتذكّر رفيق طفولتها، لكنّها لم تفعل، واكتفتْ بسلام عابر بعثته لي مع زيد، فهي تنتظر خاطبًا لتعقد قِرانَها خلال أيام». ذكَّرتني بساشا حين بعثت بكلماتٍ تواسيني مع بيتر.. قالت: «ستثبُتُ براءتُك، وسنعود نلتقي مجدّدًا». أهذا كلّ شيء. لم تستطع أن تفعل شيئًا آخر تجاهي، وددتُ لو تسمعني! تساءلت إن كانت تعتقد ذلك حقًّا! كانت النقاشات والأحاديث تنتشر كالنار في الهشيم بين الأصدقاء حول مصيري، أمّا ساشا فقد حاصرتها أمّها كثيرًا. لقد صدَقت نبوءاتُها مؤخرًا حول ذلك العربي القادم من البعيد.

في بلدتي، كانت العتمةُ تجتاحني من الداخل، والكآبة تُطيح بروحي، وتلتفّ حول عنق الأمل لديّ فتعصِره، فتكاد نفسي تثبُ من وعائها المادي هاربةً من كَبَدِ ما تقاسي. لقد حصل لي الكثير من الأشياء. كيف أمكن أن أكون سببًا لهذه الأحاديث والشائعات جميعها؟

بدا أبوه وقد تقدّم به العمر، وبانتِ الخطوط على يديه وعلى تقاسيم وجهه. لم تملك فايزة من أمرها شيئًا. أرفقت به كثيرًا ولم تستطعْ فعلَ شيء حيالَ مشاعره نحْوي، كان يقول أنّه تفاجأ أنّ هذا يحصل، وتساءل: «كيف له أنْ يكون بهذا البرود؟» كانت عيناه تبْرقان ويداه ترتجفان.

دخلتْ فايزة بهدوئها المُعتاد، بينما اشتدّت لهجةُ الأب، كان غاضبًا ومهتاجًا، ولا يعرف ما يقول! حاولت أنْ تهدئ من غضبه، لكنّها لم تفلحْ فقد أسكتها بكلماتِه القاسية، إنّها تعرفه جيدًا أكثر ممّا تعرف نفسها، لن يرتاحَ أبدًا بعدَ ما حصل، فما عساي أفعل بنفسي؟

لقد شعرتُ بنفسي نائيًا في عالمٍ كان قطعة منّي يومًا، لقد أعلن أصدقاءُ أبي محاكمتي، يجتمعون من الصّباح في المضافة يجلسون صامتينَ لبُرهة من الوقت، ثمّ تنفرج أساريرهم مرّة واحدة يقدّمون الحلول ويفترضون الفرضيات.

رأيتُ أحدَهم من شِقّ الباب وقد اتّخذ موقع الخطيب، يجلس على كرسي يتوسّطهم جميعًا يرتدي ثوبًا أسودَ مرتّبًا. تذكّرت أنّه جارنا (قاسم) الذي لطالما أمْطرني بوابلٍ من أسئلته التي كانت تتَهاوى على رأسي صغيرًا، وها هو يعود مجددًا ليلعب دورَ جلّادي.

اتّخذتُ قراري الذي لا عودة منه: «لقدْ تركت مكاني هناك في لوس أنجلوس، لكنّ ما أحتاجه الآن هو برزخٌ معنوي ينقلني لزمانٍ ومكان آخرين. آه! إنّه البياض مجدّدًا. أين أنت أيّتها الذاكرة المدعاة الدعيّة؟ فلتكوني عونًا لي ولوْ ليوم واحد، فإنّما أنت إذًا ضربٌ من ضروب الخيال، أو جدَل تحتكمُ معرفتي به بمحْضِ ما أتلمّسه، ويهيأ لي أنّي أسمعُه كسرابٍ مركوم في قعْر رأسي وإنّي لأحسبه حقيقةً، حتّى إذا ألفيتُه وجدته وهمًا! وها أنا أحتكِمُ إليكِ وأنت مَن تسألين وتجيبين وتحْتَكمين وتخْتَصمين، وكلّ ما

يمثّلك يلفّه الغموض، وتودّين أنّ ذات المعرفة تكون لي! أفلا تعلَمين- كما أعلم- أنّ الشيء لا يُسأل عن إمكانه، وأنّي في هذا قد أخطأت بحقّ نفسي».

كانت فايزة تراقبُ عن كثب، ولولَتْ هامسة لنفسها، صفقتْ خدّها، وأرخت أذنيها، وحملقت في المشهدِ مجدّدًا.

صمتَ عجّاج، ونظر حوله كمَن زاغ بصرُه، ثمّ عاد محدّثًا نفسه بصوت مسموع:

«وكيف لي أنْ أعلم بوجودك، وكلّ إجابة متوقّعة توقظ فيّ الارتياب! وهل يمكنْ أن تكوني مجرّد أوهامٍ لا أساس لها فيلبّس عليّ؟»

لم تعرفْ فايزة إنْ كان يحدّثها أم يحدّث خيالَه، وكادت تقعُ أرضًا فلم تفهم شيئًا ممّا يقوله عجّاج، لكنّها أيقنتْ أنّه يتحدّث مع أحدهم. تغيّر لون وجهها واستعاذتْ بالله من وسواسها وتفَلَت عن شمالها ثلاثًا، وتكتّمت على ما سمعت، لكنّ الكلمات طرقت سمعَها مجدّدًا، فقد تمتمَ مُكملًا حديثه مع ذلك المجهول:

«إنّ إصراري على إدراك ماهيتك إنّما هو جمعٌ لطريقين أتمسّك بأحدهما في تتبع حواسّي لأمسك بحيّز ماديّ يحتويك، وفي آخر أصرُّ على أنّك محضُ أوهام وتخيلات، ولهذا فمنطقي مردودٌ عليّ، فكيف أستدلّ بالماديات عليك؟ ها أنا أعود لموقعي، وما خلُصت له سوى أنك بضعة منّي، وربّما أنت كلّي!»

قضيةٌ عامّة

كلّ ما يتعلّق بقضية الصّفر الدوائي هو بضعةٌ من جانيت، الصحفية ذات الأصول الفرنسية بملامحها الناعمة وقوامها الرشيق. امرأةٌ أربعينية هي الأكثر نفوذًا في الوسط الصحافي وصاحبة البرنامج الأشهر على مستوى البلاد «الحقيقة».

تعيش الآن في لوس أنجلوس مع والدتها، فقد توفّي والدها في حرب فيتنام، وهذا ولّد عندها ردّةَ فعلٍ دفعتها للبحث ودراسةِ الصحافة، كانت تحبّ والدها كثيرًا.

في مكتبها الكائن في الجادّة ٦٠ تنتظر أحدَ الشّخصيات المهمّة والدّاعمة من منظمة حقوق الإنسان والمهتمّة بقضية الذاكرة الصفرية. بعد انتهائها منْ تجميع خيوط القضية التي بحثتها مع الدكتور رمزي في لقاءٍ خاصّ وسرّي، جلست تحتسي القهوةَ مع صديقها العربي الثريّ أبي الحسن، وهو الحلقة الأولى التي ربطتها بقضيتها الجدلية الجديدة.

كان الحديثُ بينهما لا يعْدو حديثًا عابرًا عن اليوميات، وشيئًا من الفضفضة قبل وصول ممثل المنظمة، وذلك بحُكم ما يربطها بأبي الحسن من صداقةٍ قديمة إثرَ هجرته للبلاد بصفته أحدَ الأثرياء ، وقد تبنّت هي

قضايا المهاجرين لفترة طويلة من الزمن، وبالصدفة تعرّفت عليه. بدأت الحديثَ قائلةً: «كم تتردّد ذكريات الطفولة على مخيّلتي. أشتاق لوالدي حين كان يصطحبنا معه برحلةٍ الى الساحل في أيّام الإجازات، فأجلس بالقرب من الشاطئ تظلّلني النوارس، وأنا أجمع القواقع، وأعدُّها ريْثما يجمع إخوتي بعض السلطعونات الصغيرة كطعم للأسماك». نظرتْ نحو السّماء التي كانت تنهمر بمطرٍ رشيق، وأشارت له قائلة:

«أنا وأنت لنا ذاكرةُ الماضي، وربّما هذا ما يجمعنا! أصولي الباريسية وأصولك العربية. لا أبدو عنصرية بقدر ما أنّني سأتمسّك بالقليل من فرضيات جوستاف لوبون- وأنت تعرف فرضياته- وحديثه عن العقل الجمعي للجماهير. في الحقيقة جيناتي الباريسية تلاحقني»

تحدّثت بمرح، ثمّ رفعَتْ كتفيها وأرْختهما بحركةٍ طفولية، وتابعت قائلة:

«أعشقُ القهوة وسحرَ الشتاء». تنهّدت وأطلقت بصرَها باتّجاه النافذة بعينيها الواسعتين المُحاطتين برموشٍ صناعية كثّة لم تثقِلهما ماسكارا- إيف سان لوران - بقدر ما أثقلتْهُما غيومُ الحيرة التي تخفي وراءها بروقَ القلق. تابعت... «آآه! المطر، البرق، الرعد، الإضاءة الخافتة، الشّوارع المبلّلة، والباعة المتجولون، لا أقاومُ سحرَ هذا الفصل، ولا أستطيع إلّا أنْ أحمل مظلّتي وأتنقّل عبر الطرقات».

تبسّم أبو الحسن، وبدتْ أسنانه البيضاء لامعةً لرجلٍ في عمره، لكنّه ليس بغريب على من يعتني بصحّته، وينتقي طعامَه جيدًا، حدّق عبر النّافذة، أنصتَ لها بشغف. كان يرتدي سترةً من الجلد ويضع يديْه في جيوبه، تتهدّل خصلاتُ شعْره التي لا توحي بسنّه لتلامس كتفيه مُنْحسرة عن جبين ممتدّ وعريض، كان يتّكئ على حافّة النافذة، تحدث متبسمًا: «نقبل حُبّكِ للشتاء كما نقبلُ كونك باريسية الأصول، ولكنّنا لا نقبل بفرضيّات جوستاف لوبون كلّها، القليل منها فقط». قاطعه صوت طرق الباب.

«الضّيف قد وصل» قالت السكرتيرة التي وقفت أمام الباب تنتظر الجوابَ من جانيت، وقد شدّت قوامها الممشوق المستند على قدميْن تنتعلان كعبًا ثقيلًا بلونٍ رمادي، ومرتدية بدلة نسائية رسميّة من قماش الكِتّان، وبعض قماش الموسلين توزّعت في أعلاها أزرار فضيّة بخطّ مستقيم وبارزٍ من أسفل الرقبة الى أعلى الخصر. تنبّهت جانيت لمكوثها، وطلبت منها إدخال الضيف، دخل الرّجلُ وألقَى التحية. رحّبت جانيت بالضّيف وقدّمته للحاضرين: «السيد شون من منظمة حقوق الإنسان.. أهلًا بك».

بدا فارع الطول بملامحَ أمريكية سينمائية، يرتدي معطفًا من الشامواه بلون البندق المحروق، شعره مصفّف بطريقة مُلفتة، يسترسل جزءٌ منه على صفحة وجهه ممّا منحه غموضًا لافتًا، وفي يدِه ساعة ذهبية

لامعة مُتماشية مع انْعكاس الضّوء على شعره الذّهبي والكريستالات المرصّعة على ساعته مدلّلة على أنّها من ماركة عالمية.

«تفضّل بالجلوس» أشارت له. أومأ بكتفيه وجلسَ واضعًا رجْلًا على رجْل، مشبكًا يديه، فاتحًا أزرار معطفه ليتمكّن من الجلوس بوضعية مريحة.

أردفت مشيرةً إلى السّيد أبي الحسن: «صديقٌ وداعم للقضية»

أشعلت جانيت سيجارتها ونفثت دخانها عاليًا ليشكّل سحابة راكدة قائلة: «العملُ المهني المبدع يحتاج إلى مزاج جيد، ويبدو أنّ مزاجي ليس كذلك!» صمتتْ لبرهة وأردفت: «لا بأس، ما رأيكم أنْ نحتسي الكابتشينو فنكسِرَ الرّتابة؟» أبدى الرجلُ ترحيبًا بالفكرة، بينما فضّل أبو الحسن القهوة الكلاسيكية.

طلبتْ جانيت من السكرتيرة أن تحضرَ لهم المشروبات، عدّلت وضعية جلوسها لتبدو كفارسة ترتدي بدلةً نسائية رسميّة بلونٍ أزرق غامق، وتقليمات رفيعة، تركت شعْرَها حرًّا ومنسدلًا على كتفيْها ممّا منحها مظهرًا طبيعيًّا وصادقًا، تحدثت:

«أعتقدُ أنّ من اللازم للصّحفي أن يتمسك بتلك القضايا التي تهزّ الأقوياء وتحرجهم. إذا لم تحرّك القضية الرأيَ العام كريحٍ عاتية، فلماذا نهتمّ بها؟ لنزداد شهرة مثلًا! ألم نكتفِ ونشبع من مظاهر التفوّق والشهرة؟ علينا أن نهتمّ أكثر بنشر الحقائق وتقريرها»

صمتتْ، وحدّقت في عيون ضيفيْها كمَن تبحث عن إجابة. بدا الوجومُ والصمت سائدًا. عادت وأردفت:

«والآن، نحن نعاني من مشكلةٍ حقيقية. لقد ثبت تورّطه. إنّه الدكتور جيفري- صاحب الأبحاث الصّفرية المشوّهة على العقل- والحدث الأخيرُ كان بهدف التّغطية على قضايا التزوير الخاصّة بالقضيّة الدوائية المتعلّقة بأبحاث الأدوية المستعمَلَة في تجارب الدكتور جيفري، ومدى سمّيتها على البشر، وحتّى على الحيوان. إنها وحشية لا مثيل لها!»

مستر شون يعدّل من وضعيّة جلوسه، يمسح شَعْره بكفّه مرجعًا بعض خصلاتٍ منه عن مستوى نظره، يبدي اهتمامه وحماسَه بالحديث قائلًا: «في هذا العصر، هناك العديد من الجهات التي تبحثُ وراء السيطرة على هذا العقل المُعجزْ لأنّ إحكام القبضة عليه يدعو لتتبّعه، ولذا ظهرت وسائلُ عديدة وتقْنيات مختلفة للتحكّم قد تكون منطقية إذا تمّ استخدام تقنيات تعديل السلوك أو عن طريق وسائل الإعلام والميديا الحديثة، ولكنّ قضيتنا الكبرى تتمثل في تلك الأبحاث الكارثية وإمكانية تطبيقها على البشر»

جانيت- وقد بدا الانفعال واضحًا على ملامحها- تتحدّث وهي مسندة إحدى ذراعيها وتمسك سيجارتها بالأخرى: «لو كان الأمرُ متعلّقًا بنشر معلومات موجّهة ومركّزة بهدف التأثير على آراء أو سلوك

أكبر عددٍ من الأشخاص، وغرس أفكار وقيم معيّنة، والترويج لها بطرق مدروسة أحيانًا لكان هيّنًا! فهذا يظلّ في إطار الأفكار، أمّا الذي أسمعه وأقرأه فهوَ وحشيّ للغاية، أكثر وحشيّة ودمويّة من أيّ وسيلة كانت! إنّه أكبر من تغيير كيميائية الدماغ... إنّه إتلاف لمحتوياتها»

أبو الحسن معقّبًا وقد قطّب جبينه بانفعال: «هذا الرجلُ فقد عقله! أيّ صلاحية تلك التي تخوله إجراءَ تجارب على البشر كأنهم فئران؟»

جانيت تحرّك يدَها بحركاتٍ متماشية مع كلماتها: «هذا النوع من الأبحاث ليس وليدَ الساعة بالتأكيد، لقد كانت بدايةُ ظهور أبحاث التحكّم في العقل البشري إبّان الحرب الباردة في فترة الخمسينيّات والستينيّات حيث الصراع بين القوى للحصول على المعلومات، وحينها ظهرت أبحاثٌ غريبة وسريّة تتعلق بالتحكم أو بالتلاعب بالدماغ البشري»

مستر شون موضّحًا: «نعم، الفكرةُ ليست وليدة الساعة بالتأكيد. لكنّها بدأت عند اللحظة التي فكّر فيها البشر في تطوير عمليات التجسّس واستخدام الحيوانات الأليفة كالقطط في تلك العمليات، حيث تمّ زرع شرائح إلكترونية وأجهزة تنصّت دقيقة داخل القناة السمعية للقطة وإرسالها للجهة المطلوبة، وتلقّي المعلومات السريّة منها لاسلكيًّا، والاتّصال والتحكم بها من غرفة خاصّة!»

ساد صمتٌ فقد دقّت السكرتيرة الباب، وأحضرت المشروبات، وهي عبارة عن كوبين من الكابتشينو الساخنة وكوب من القهوة الكلاسيكية. شكرها الجميع وتناول كلّ واحد مشروبه السّاخن، ثمّ قال أبو الحسن: «تبدو القضيّة أكبرَ من جيفري وجنونه. هناك جهات ترخّص له أعماله وتدعمه في الخفاء، فالمتورطون كثر!»

كانت جانيت تعبثُ بالبخار المُتصاعد من كوبها بحركةٍ عشوائية، وأردفت موضّحة: «سيكون للقضاء الكلمةُ الفصل في ذلك. لقد فتحت قضية التّفجير البابَ على مصراعيه لتتكشّف كلّ هذه الحقائق، ملفّات وتجارب على البشر، أبحاث، تزوير أوراق رسمية، انتحال شخصيات، وثمّ تفْجيرات.. ما هذا؟ لقد فقدنا رُشْدنا حقًّا!»

مستر شون يرطّب فمه باحتساء مشروبه، ثمّ يعاود حديثه: «كنّا- ومازلنا- نتذاكى على العالم بتفوّقنا العلمي والأخلاقي، ولكنّ ذلك يبدو كفقّاعة هوائية إذْ إننا نحيا حضارةَ الفقاعة، ففجأة ينتهي كلّ هذا ويتحوّل إلى وهمٍ وصورة خيالية!»

إنّها الصورة العالمية للرّجُل الخارق المُسيطر على هذا الكون، والذي لم يعدْ بحاجةٍ حتّى لفكرة بحثِه عن الإله، لم يعدْ يؤرّقه ذلك، وهذا العملاقُ البشري ذاته يلتفُّ على نفسه ليقضي عليها، وعلى الكون من حوله.

جانيت تنهضُ عن مقعدها الجلدي، تحمل كوبها وتتحرك باتجاه النافذة ثمّ تعقب على ذلك بحيرة: «يبدو أنّه مازال هناك خيطٌ خفيّ يشير إلى أنّ هناك جهةً ما تتحكم بأذرع القضية وتمسك بها، وتحركها كمسرح العرائس، وكأنّ الحاجةَ لجنون جيفري قد انتهت، ولم يعدْ ذا أهمية سواءٌ أتمّ تصفيته أم إبقاؤه، فنتائج أبحاثه موجودة، ويمكن لأحدهم أن يتبنّى هذا الشرّ مجددًا، ويسعى وراء جنون التفوّق البشري وصناعة عقل متفوق يكون آلهة تدير هذا الكون وتتحكم ببقية البشر بجعلهم أصحاب عقول صفرية مبرمجة، فتلغي بذلك العقل الذي هو مصدر التطور والحضارة، وما يميّز البشر عن الحيوانات! إنّها كارثة.. المال وفقط.. الربح ولا شيء بعده.. كلّها كلمات تعبّر عن نفس المعنى».

أبو الحسن مُضيفًا لوجهات النظر: «بالتأكيد أنا لست ضدّ التّغيير، لكني لا أرغب بهذا التغيير الذي يؤدّي إلى تغيير الفكر، تغيير الخريطة، تغيير الهوية، إنّها حربٌ على جميع الأصعدة تشنّها شركاتٌ خاصّة ذات صلاحيات مستمدّة من الأموال العامة».

يعقّب مستر شون: «كلامك صحيح في جانبٍ كبير منه، فضلًا عن أنّ المال فعليًّا يُنفق على شنّ الحروب خارج البلاد، والمساعدات التي تهدف للربح، ثمّ تلك البحوث التي تتمّ داخلًا لتدعم عملها خارجًا».

أبو الحسن: «نعم، هذا صحيح. لقد باتت الحروب والكوارث سوقًا جديدة، وتربةً خصبةً لجني المال والربح»

جانيت تعود لتستريح مجددًا على كرسيّها، وتُرجع خصلاتِ شعْرها الكستنائي خلف كتفها، ثمّ تقول: «أتذكّر أنّي قرأت مقالةً لأحد المحلّلين يعلّق فيها على الأرباح التي عادت على إحدى الشّركات لقاءَ خدماتها في مجال الطّاقة بقوله: «كان الوضع أفضلَ من المتوقّع، لدرجة أن قيمة أرباح الشركة وصلت عشرين بليون دولار في أحد أكثر الأشهر عنفًا في الخارج، لكنّه الآن أصبح نهجًا بمعزلٍ عن الحكومات؛ لأنّه أصبح مسيطرًا عليه أيديولوجيًّا»».

مستر شون مقاطعًا: «لقد نجحتْ في جعلها عالمية، فالتعبير الأدقّ الذي يسقط الحدود ليس سوى المؤسساتية، والتي أحد صفاتها تحويل المال من القطاع العام إلى القطاع الخاص، ممّا يساعد على نشوء الطبقية وزيادة الدين، وإنفاق لا متناهٍ على الأمن بالنسبة لمَن يمتلكون هذه الثّروات».

أبو الحسن: «ربّما ينعكس هذا على الحريّات وانتشار الجريمة والمافيات»

جانيت بحماس: «هذا الكلام وثّقه أحدُ الكتّاب بالنصّ؛ حيث قال: (إنّ الرغبة في التمتع بقدرات إلهيّة على إعادة الخلق هي السّبب الذي يجعل هؤلاء ينجذبون نحو الأزمات والكوارث، ولهذا فالواقع

لا يرحّب بطموحاتهم، بل إنهم مقتنعون بأنّ الانسلاخ وحده أكان طوفانًا أم حربًا أم هجومًا إرهابيًّا؛ هو القادر على خلق قاعدة التواصل النّظيفة التي يتوقون إليها))»

مستر شون: «إنهم يصنعون تربة مناسبة بيئة بشرية متهيئة»

ردّت جانيت: «في تلك اللحظة نكون غير مستقرّين نفسيًّا، ومنسلخين عن أجسادنا، فيتدخل هؤلاء الفنانون ويبدأون عملهم في إعادة بناء العالم»

يمدّ السيد أبو الحسن يدَه خلف رأسه، يحرّك رقبته يمنةً ويسرة، يمسّد خصلًا من شعره، ثمّ يتحدّث: «أن تُسلِم عقلَك وتفكيركَ وتقتنع بفكرةٍ أو شيء معيّن؛ هو أمرٌ يرجع لك، لكنْ أن يتمّ برمجة عقلك وتوجيهُك لفكرة معينة، أو حتّى زرع أفكار وتوجّهات داخل عقلك بلا حول منك ولا قوّة؛ فهذا أمرٌ غير مقبول!»

أطرقتْ جانيت برأسها، وتحدّثت بأسى: «لم يكنْ أحدٌ يتصوّر أنّ مسار البحث يمكن له أن يسير باتّجاه آخر غير الذي كان متوقّعًا، اتّجاه مَن يحمل السكين ليقطع اللّحم، وبدلًا عنه يقطع يده! تتمّ سرقة المادّة البحثية ونقلها إلى المختبرات في ضوء خطّةٍ مُحكَمة تتورّط فيها جهات خفية وغير معلنة، لكنّها ذات صلاحيات تموّل هذه الأفكار لتطبَّق على البشر في نطاقٍ غير أخلاقي»

تصمتُ محدّقة في وجوه ضيوفِها، تشعل سيجارتها مجددًا، ثمّ تردف:

«إخضاع مجموعات بشرية لجلسات سريّة لمدّة أشهر في ظلام دامس مع قطعهم عن العالم، وأيّ اتّصال، وتنويمِهِم لمدّة غير معروفة وبسِرّية تامّة في محاولة لمحْو الذاكرة القديمة، وكلّ متعلّقاتها في الدماغ بمراقبة الأشخاص خلال الصّحو وخلال النوم ليتمّ الانتقال بهم بعد ذلك للمرحلة الثانية من التجربة، وذلك بعد الوصول معهم لتلك الذاكرة الصفرية التي تجعل الرجل البالغ كطفلٍ صغير، لا يتذكّر شيئًا عن نفسه، كمولودٍ نزل لتوّه من رحم أمّه!» تصمت... ترتشف قهوتها، ويبدو أثرُ الحديث واضحًا على وجهَي ضيْفيها، ثمّ تُعاود الحديث: «يتمّ بعد ذلك تزويد الأشخاص- في غرفٍ خاصّة خلال فترة معينة- بالاحتياجات الضّرورية للبشر، تمامًا كما لو أنه يتمّ تعليم طفلٍ رضيع ليكون مجهّزًا لتسليمه لمنظّمات خاصّة سريّة تستخدمهم في حروب سياسيّة وهجمات إرهابيّة، وتبقيهم بعيدين ومعْزولين عن أيّ منظمة حقوقية أو هيئة إعلامية تسعى لسبْقٍ صحفي.

سَبْقٌ صحفي

كان سبقًا صحفيًّا تصدّر- وبخطوط عريضة- واجهةَ الصّحف المحلية.. سيناريو مُحْكم تمّ من خلالِه نسبة المجْهود العلميّ للأبحاث للدكتور جيفري.. بعبارة أخرى سرقة، وذلك بهدف الربح والشّهرة، وللتّغطية على ذلك جاءت عمليةُ التفجير التي نفّذها أشخاصٌ خضعوا لتجربة الذاكرة الصّفرية في ذات المختبرات، وتمّ تجنيد أحدهم لانتحالِ شخصية (عجّاج محمود العربي) بهدف القضاء على الأشخاص القائمين على الأبحاث الصفريّة في نسختها الأصلية غير المزوّرة أو المشوّهة، بل تلك المطورة، والحاصلة على براءة اختراع علميّة مسجلة باسْم عجّاج، وإشراف الدكتور رمزي، كلّ ذلك حتى يتمّ التّغطية على سرقة البحث من قبل راندي- الشريك الأول للدكتور جيفري في أبحاثه المشوّهة- والعقل المدبّر لعملية التفجير في المبنى الذي يضمّ المختبرات التابعة لمعهد بحوث الذاكرة والأعصاب لإخفاء كلّ دليل ماديّ عليها، والتغطية على القضيّة برُمّتها، وإلصاق التّهمة بأحدهم. تلك المتابعة الصّحفية الحثيثة- من قبل جانيت المدْعومة أيضًا ماديًّا ومعنويًّا من منظّمات مُعلَنَة، وجمعيّات سريّة لحقوق الإنسان، وبمساعدة صديقها القديم أبي الحسن المغربي الذي كان له الدورُ الأكبرُ في العمل على تهريب عجّاج

وإبعاده عن القضية تمامًا- أعادت فتح القضية على مصراعيها لتظلّ لسنوات في صدّ وردّ تُبحث أمام المحاكم وهيئة المحلّفين لتُصدرِ أخيرًا قرارها بانتصار الرأي العام وثبوت التهمة، وتورط العديد من الجهات الخاصّة ذات الأذرع الخفيّة وسط ذهول الشّارع العام بعد اختفاء أغلب المتورّطين في القضية، وعدم معرفة أماكن تواجدهم.

«إنّ العمل الصّحفي الحديث ينطوي على نهاياتٍ غير قطعية، نهايات تترك القارئ ربّما محتارًا وغيرَ راضٍ، لكنّه محتارٌ وغيرُ راضٍ بحدودٍ تنتجُ لنا مزيدًا من الأفكار، علينا ألّا نرفض نهايات كهذه لمجرّد أنّها لا تعطينا ذلك الرّضا الذي تعطينا إيّاه حبكةُ رواية أو قصّة لصديق مثلًا!»

برزخٌ مكاني

يأتي الصباحُ معلنًا عن كشف خيوطِ نسيجه الأولى، مزيلًا لثامَ الليل ونحيبَ ريحه، ها هو يركض لاهثًا باتّجاه الوادي، وخلفه زوبعةٌ من الغبار تغطّي الأفق الضّيق للمنحدر، بدت الأغنام هائجة على غير عادتها، والجوّ يُنذرُ بعاصفة ماطرة، تساءل: «ما ذلك الكمّ الهائل من الغبار في الجوّ؟» لم يعتَدْ على مثله في هذا الوقت من السنة، فهل تتبدّل الفصول؟

سار مخلّفًا وراءه ذلك الغبار وهو يتوكأ عصاه، ويحثُّ خطاه، حتّى أدركه صوت مزمجر، تمتم: «أتُراه بشيرٌ أم نذيرْ؟»

تابعَ سيْره.. ابتدأ الجوّ العاصف، الريح تهبّ من الغرب عاتية قوية، وصوتُ هدير الماء كشلال.. يبدو أنّ الوادي لم يعدْ ساكنًا كما كان، بدا وكأنّه الصّخَب بعينه، حتّى الوديان يأتيها يوم يتزلزل ما بداخلها، وترفض ذلك السكون المفروض عليها.

عند نهاية مصبّ الماء حيث تجتمع الحجارة لفتَ نظرَه شيء تنعكس على سطحه أنوار البرق بلمعانٍ يشي بحُمرة خفيفة. دقّق النظر، وتنّهد إذْ بدا له ذلك الحذاء الذي فقده يومًا في وادي السّاكن حين كان صغيرًا، كان حذاءً مصنوعًا من جلدٍ لامعٍ بلون برتقالي، أحضره له أبوه في

العيد، في ذات الأسبوع ارتاد الوادي مع بعض الأصدقاء، خلع حذاءه ليتمكن من اللعب دون أن يُحدِث به ضررًا، لكنّه فقدَ فردةً منه في ماء الجدول، وعاد بالأخرى.

تذكّر تلك الغجريّة التي كانت تقرأ الفنجان وتخطّ الودَع لنساء المدينة، وكيف اتّفق له حين رأته جدّته فقالت له: «لا ينبغي لك أن تعود بفردة حذاءٍ واحدة!»

تدخّلت الغجرية التي كانت ترقبه عند قدومه وكأنّها طائر بومٍ، بعينيها الغائرتين وأنفها المدبب، وتلك الخطوط الزرقاء المحفورة على ذقنها: «هذا فألٌ غيرُ حسن! تروي الأساطير أنّ مَن يفعل ذلك فسيسافر سفرًا بعيدًا، وسينقطع طريق السّفر به يومًا ليعود إلى المكان الذي فقد به ضالته» نهرَتْها الجدّة، وصرفتها من حيث أتت.

رجعتْ ذاكرته إلى ماضٍ كان قد نسيه، أو ربما تناساه.

لقد اعتصرت الأحداثُ رحيقَ مشاعره حتى تجعّدت صفحات ذاكرته، وتقلصت عبره كلّ الذّكريات التي تحتاج لحرارةِ شعور المولود من جديد كي يتمكّن من فكّ انثناءاتها لتعود منبسطة سهلةً على فطرتها، بيَدْ أنّها أطوار يتقلّب فيها بين مدّ وجزر.. بسط وانقباض، وندوب ستترك آثارَها على قلبه، ولن تعفوها رياح العبور، ظنّ أنّه اختار أنْ يحيا ذاكرته الصفرية كقرار داخل عقله وليس كقرارٍ فُرض عليه بنتيجةٍ

بحثية، ولكنْ يبدو أنّ خياله الطفولي كان حاضرًا وبقوّة- عندما تحدّثت الغجرية- ليعمل على صناعةِ مستقبلٍ يعود به إلى ذات المكان، ولتبقى تلك الكلمات محفورةً في عقله.

يبدو أنّ ذاكرته ما عادت بيضاء! لقد تذكّر كلّ تلك التفاصيل!

هل يمكن أن يكون قد استخدمَ الخيال وعالمَ الأحلام التصوري ليقطع ارتباطه بالواقع فعمل على خلقِ واقعٍ جديد يعيش فيه بذات الرّوح التي كانت طفلة يومًا بالرغم من تقدّم وعائها الذي يحويها وتأثّره بالزمن، الغلبة إذًا للطاقة والقوة الموجودة في الخيال، فهي القادرة دومًا على التحليق بعيدًا عن سجن الواقع، ذلك الواقع المصطدم مع الأحلام ومع المخيّلة، فتكون أنت مَن تصنع واقعَك وتسيّره، وتلتقي فيه مع مَن يُشْبهك من الأرواح، فالخيال يستطيعُ أن يُبدع ما يفتقده الواقع.

«انقشعَ النّسيان، فتراكمتِ الذّكريات، واكتملتْ بدرًا أضاء قلبَه»

تمّت بحمد الله

عاتكة العمري

عن الكاتبة عاتكة العمري:

- حقوقيّة، كاتبة وروائية أردنية.
- مدرّبة واستشاريّة أسرة، مقدّمة للعديد من الدّورات في تنمية الفكر والذات أونلاين ومباشر. ناشطة اجتماعية في مجال المرأة حاليًا.
- مؤسِّسةُ منصّة (وقرّي عينًا) ومبادرة (البساط أنثوي).

رابط المنصة:

https://www.facebook.com/8re3ena/

رابط الحساب الشخصي:

https://www.facebook.com/um.muhab/

صدرَ لها العديدُ من الأعمال الأدبية:

- رواية «وللنّساء نصيب» ببلومانيا للنشر والتوزيع.
- رواية «وقرّي عينًا» مؤسسة حمادة ودار اليازوري.
- كتاب «عقلك حديقة أفكارك» مؤسسة حمادة ودار اليازوري.
- كتاب «عودة الرفيقات» دار نشر عبير الكتب/ إلكتروني.

- رواية «مغلوبٌ فانتصر» موقع نور/ نشر إلكتروني.
- رواية «قدوة الأدب» دار حروف منثورة/ نشر إلكتروني.
- شاركت بجائزة منف للرواية العربية ٢٠١٦.
- شاركت بجائزة كتارا للرواية العربية دورة ٢٠١٧.
- مشاركة بعدد من المجموعات القصصية الجماعية ورقيًّا وإلكترونيًّا.

فهرس المحتويات